كشف الغطا

عن

معرفة الأقسام للمصطفى

شيخ الإسلام الدكتور محمد طاهر القادري

تقديم

الحمد لله العليم القدير، الذي خلق نور نبيه البشير النذير ﷺ قبل الأوائل كلها، فجعله رسولاً نبيّا قبل أن يخلق أرواح الرّسل والأنبياء وأودع نوره في الأصلاب العلية الطّاهرة كما ربّاه في الأرحام النقية الطيبة، فرأى تقلّبه في السّاجدين إلى أن خلقه من الأبوين الكريمين البريئين الطّاهرين، فخصّصه بأجمل السير وأحسن الشّمائل وأطيب الذكر ثم بعثه بعد فترة وفي نهاية الرسل، فأيّده بأثبت المعجزات، وعلى رأسها وأكبرها وأخلدها، هو القرآن الكريم، فهو أول النبيين خلقًا وآخرهم بعثًا، وبذلك قد أخذ الله له الميثاق من أرواح الرّسل والأنبياء في ملكوت أزله، وكلّفهم أن يؤمنوا به وينصروه، ويكونوا له أتباعًا مطيعين وأشهدهم على ذلك، وهو عليه من الشّاهدين، كما نص عليه في كتابه العزيز فقال، وهو أصدق القائلين:

www.MinhajBooks.com

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[1]

وبعد ... فإنه يطيب لي ويشرّفني أن أقدّم تقديمًا بهذه الكلمات القصار الموجزات لكتاب عظيم قد ألّفه عالم نابغة في موضوع جليل وعن أعظم شخص وأكمل فرد في تاريخ البشر جميعًا ﷺ! فأما الكتاب العظيم فهو "كَشْفُ الْغِطَا عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَقْسَامِ لِلْمُصْطَفَى ﷺ" وأما مؤلفه العالم النابغة فهو نجم من نجوم الأمة ومفخرة من مفاخرها، ألا وهو حبرنا العلامة شيخ الإسلام الأستاذ الدّكتور محمد طاهر القادري حفظه الله ورعاه! وأما الموضوع الجليل لذلك الكتاب العظيم فهو معرفة المكانة العظمى لسيد البشر وأعظم الرّسل وآخر الأنبياء ﷺ عند ربّه ﷻ، بما

---

[1]. آل عمران، ٣ : ٨١

أقسم به، وله، وعليه، في كتابه العزيز، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾،[1] إنه تعالى قد أقسم برسوله الحبيب الأعظم الآخر كما أقسم عليه، وله ﷺ، فالرسول الحبيب الأكرم الآخر ﷺ في القرآن الكريم إما مقسم به، أو مقسم عليه، أو مقسم له، ولكن أنفس الأقسام وأحلاها أن يكون ﷺ هو المقسم له، وذلک حين يقسم الله ﷻ في كتابه لرسوله الأكرم الأجل المبجّل ﷺ بالكناية التي هي أبلغ من التّصريح فذلک يُضيف الجلال إلى جلاله والجمال إلى جماله ﷺ، ولعل ذلک الذي جعل شيخ الإسلام يختار اسمًا لكتابه العظيم ''الأقسام للمصطفى ﷺ'' وإن كان فضيلته قد استقصى في كتابه جميع أنواع الأقسام التي وردت في القرآن الكريم عن الرسول المصطفى ﷺ، دون غيرها من الأقسام الأخرى في كتاب الله ﷻ، وبذلک قد انفرد شيخ الإسلام القادري في هذا المجال! فقد

---

[1]. فصلت، ٤١: ٤٢

www.MinhajBooks.com

ألّف السلف والخلف في موضوع الأقسام في القرآن الكريم ولكنهم تناولوا الأقسام بأنواعها كلّها، كالإمام ابن القيم الجوزية في كتابه ''التبيان في أقسام القرآن'' والشيخ حميد الدين الفراهي في كتابه ''الإمعان في أقسام القرآن'' وغيرهما من المؤلفات للعلماء الأفاضل.

ولكن للشيخ القادري قصب السبق في المجال، إذ نراه قد انفرد وامتاز حين أفرد كتاباً مستقلا لما جاء في الكتاب العزيز عن الأقسام برسول الله ﷺ، وعليه، وله، وتلك هي مزية نادرة قد أتت لشيخ الإسلام القادري، و ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٥٤﴾.[1]

والذي أدهشني وأعجبتُ به كثيرًا هو أننا لم نعهد الشيخ أديبًا عربيّا يُتقِن العربية إتقانًا وإن كنا قد عرفناه خطيبًا مصقعًا للأردية، وقد امتاز بأسلوب أخّاذ جذّاب مقنع، يستهوي النفوس، ويستأسر القلوب، كما أننا قد

---

[1]. المائدة، ٥: ٥٤

عهدناه كاتبًا أرديا بارعًا يأتي بالروائع من النثر الأردي بقلمه العذب السيال!

وأدهش وأعْجب من ذلک کله هو أن الشيخ، حفظه الله، قد دهانا بأسلوب بديع من السّجع والقافية، إلا أنه لا يأتي في هذا السّجع وفي هذه القافية بالغريب الوحشي من كلام العرب، وإنما يستخرج ويستعير مفرداته اللغوية من القرآن الكريم مما جاء فيه من أسماء السّور وصفات الله ومن ميزات الرسول وألقابه ﷺ في الكتاب العزيز، وذلک لا يتحقّق إلا لمن عكف على سور القرآن وآياته وتوغّل في معارف التفسير، وتعمّق في علوم القرآن، واستفاد من أسرارها ورموزها، فانظر إلى شيخ الإسلام، أبقاه الله، كيف يتّخذ صفات الرسول وألقابه ﷺ من أسماء السّور القرآنية فيقول:

www.MinhajBooks.com

‘‘وَجَعَلَهُ سِرَّ الْكِتَابِ وَفَاتِحَةَ الْوُجُوْدِ، الَّذِي شَرِبَتْ بَقَرَةُ آلِ عِمْرَانَ مِنْ وِرْدِهِ الْمَوْرُوْدِ، وَامْتَدَّتْ لِبَرَرَةِ النِّسَاءِ بِهِ

مَائِدَةُ الشُّهُوْدِ، والَّذِي طَافَتْ بِهِ أَنْعَامُ الْأَعْرَافِ ذُوُو الْأَنْفَالِ، وَنَجَا بِهِ وَبِالتَّوْبَةِ يُوْنُسُ وَهُوْدٌ وَيُوْسُفُ مِنَ الرَّعْدِ الثِّقَالِ ... الخ''

والشيخ، حفظه الله، لا يتردّد في معارضة من سبقه أو مخالفته إياه فهذا ابن القيم الجوزية يرى أن ''يٰس'' بمنزلة ''حٰم'' و ''الم'' وليست من أسماء النبي ﷺ، ولكن القادري يوافق من قال: بأنه اسم من أسمائه ﷺ كما أنه ''صحّ فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم والتمجيد والشهادة بأنه ﷺ من المرسلين!''

والحق أن ''كشف الغطا'' خطوة جديدة للقادري في مجال التأليف، وقد تقدّمت به تقدمًا واضحًا ككاتب عربي وأديب مُتَفَنِّنٍ كما أنّه قد جاء بكتاب منفرد في آدابنا العربية لشبه القارة، فقد ابتكره مؤلفه العلامة ليكون له كتابًا نادرًا ليس له نظير ولا مثال، ووفّقه الله وسدّد خطاه! وتقبّل منه وأبقاه ذخرًا لأمّة الإسلام!

www.MinhajBooks.com

لاهور، باكستان **أ. د. ظهور أحمد أظهر**

في ٢٠٠٧/٨/٣١م عميد الكلية الشرقية لجامعة بنجاب سابقًا

www.MinhajBooks.com

الحمد لله الّذي أَمَدَّ كُلَّ شيء موجود وأظهر الشّاهد والمشهود وجعل السّماء سبع طبقاتٍ وشرّف فيها بنوره كلّ موجودٍ وبه ظهرت العوالم وترتّبت وتزخرفت الأرض وتزيّنت ولولاه ما كان سلوك ولا سفر، ولا عين ولا أثر، ولا مكان ولا تمكين، ولا حال ولا تلوين، ولا نَفَس ولا قَبَس، ولا فَرَس ولا جَرَس، ولا تحلّي ولا تجلّي، ولا تدنّي ولا ترقّي، ولا تدلّي ولا تلقّي، ولا جود ولا وجود، ولا حامد ولا محمود، ولا غينٍ ولا رين، ولا كيف ولا أين، ولا جمع ولا بين، ولا لذّة ولا سَماع، ولا إصاخة ولا استماع، ولا سلخ ولا انخلاع، ولا صدق ولا يقين، ولا خفيّ ولا مبين.

والصّلاة والسّلام عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي حَسَّنَ اللهُ صُوْرَتَهُ بِجَمَالِ ذَاتِه وَأَلْبَسَهُ بِأَنْوَارِ صِفَاتِه، وَأَظْهَرَ

حُسْنَ أُسْوَتِهِ وَسِيْرَتِهِ مِنْ أَشِعَّةِ سُوَرِ الْقُرْآنِ، وَزَيَنَ خُلُقَهُ وَعَادَتَهُ مِنْ لَمْعَةِ آيَاتِ الْبُرْهَانِ، وَجَعَلَهُ سِرَّ الْكِتَابِ وَفَاتِحَةَ الْوُجُوْدِ، الَّذِي شَرِبَتْ بَقَرَةُ آلِ عِمْرَانَ مِنْ وِرْدِهِ الْمَوْرُوْدِ، وَامْتَدَّتْ لِبَرَرَةِ النِّسَاءِ بِهِ مَائِدَةُ الشُّهُوْدِ، وَالَّذِي طَافَتْ بِهِ أَنْعَامُ الْأَعْرَافِ ذُوُو الْأَنْفَالِ، وَنَجَا بِهِ وَبِالتَّوْبَةِ يُوْنُسُ وَهُوْدٌ وَيُوْسُفُ مِنَ الرَّعْدِ الثِّقَالِ، وَسَعِدَ بِهِ إِبْرَاهِيْمُ فِي حِجْرِ الْفِصَالِ، وَحَصَلَ بِهِ وَحْيُ النَّحْلِ وَإِسْرَاءُ الْكَمَالِ، وَشَرِبَ بِهِ أَصْحَابُ الْكَهْفِ مِنْ خَمْرَةِ الْوِصَالِ، وَالَّذِي حَمَلَتْ بِهِ مَرْيَمُ لِأَنَّهُ طَهَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِيْنَ، وَهُوَ حَجُّ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالنُّوْرُ وَالْفُرْقَانُ لِلشُّعَرَاءِ الْعَارِفِيْنَ، وَالَّذِي آمَنَ النَّمْلُ بِالْقَصَصِ لَدَيْهِ، وَعَشْعَشَ الْعَنْكَبُوْتُ فِي الْغَارِ عَلَيْهِ، وَالَّذِي أَذْعَنَتْ لَهُ الرُّوْمُ بِأَنَّهُ لُقْمَانُ الْحِكْمَةِ وَسَجْدَةُ الْأَحْزَابِ، وَسَبَى بِمَحَبَّتِهِ الْقُلُوْبَ وَهُوَ حَبِيْبُ فَاطِرِ الْأَلْبَابِ، وَالَّذِي هُوَ يَاسِيْنُ الصَّافَّاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَهُوَ صَادُ الزُّمَرِ مِنَ الطَّائِفَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَهُوَ سِرُّ غَافِرِ الذَّنْبِ التَّوَّابِ الْغَفُوْرِ، وَفُصِّلَتْ لَهُ

الْآيَاتُ وَالْأُمُوْرُ، والَّذِي هُوَ صَاحِبُ الشُّوْرَى بَيْنَ الْأَصْحَابِ وَالْأَحْبَابِ وَالْأَشْرَافِ، وَزُخْرِفَ دُخَانُ النَّفْسِ الْجَاثِيَةِ عَنْهُ بِالْأَحْقَافِ، والَّذِي هُوَ صَاحِبُ الْفَتْحِ وَالْحُجُرَاتِ، وَقَافُ الذَّارِيَاتِ مِنْ طُوْرِ النُّفُوْسِ بِالتَّجَلِّيَاتِ، وَالنَّجْمُ الَّذِي طَلَعَ بِنُوْرِ الْهُدَى وَالسُّلْطَانِ، وَالْقَمَرُ الَّذِي نَوَّرَ الْكَوْنَ بِنُوْرِ الإِيْمَانِ وَالْبُرْهَانِ، وَهُوَ الْمُسْتَمِدُّ مِنْ عِلْمِ الرَّحْمَنِ، الَّذِي هَوَ صَاحِبُ الشَّفَاعَةِ وَالْكَرَامَةِ يَوْمَ الْوَاقِعَةِ، وَصَاحِبُ الْحَدِيْدِ فِي الْمُقَاتَلَةِ وَصَاحِبُ الْمِيْزَانِ فِي الْمُجَادَلَةِ، والَّذِي كَتَبَ اللهُ لِأَعْدَائِهِ الْحَشْرَ وَالْعَذَابَ وَالْجَلَاءَ، وَأَعْطَاهُ أُسْوَةً مُمْتَحِنَةً فِي كُلِّ فِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ، والَّذِي قَاتَلَ أَصْحَابُهُ فِي سَبِيْلِ اللهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوْصٌ، وَكَثُرَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِالْحُكْمِ الْمَنْصُوْصِ، والَّذِي يُرَى الْمُنَافِقُوْنَ عِنْدَهُ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ، وَسَتَأْتِي إِلَيهِ الْأُمَمُ يَوْمَ التَّغَابُنِ كَالْجُنُوْدِ الْمُجَنَّدَةِ، الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ لِأَجْلِهِ أَحْكَامَ التَّحْلِيْلِ وَالطَّلَاقِ وَالتَّحْرِيْمِ، كَتَبْتَ لَهُ يَا

مَالِكَ الْمُلْكِ، مَنْ أَهَانَهُ مِنْ أَهْلِ عَذَابٍ أَلِيْمٍ، هُوَ مِيْمُ الْقَلَمِ وَ نُ وَمَا يَسْطُرُوْنَ، وَهُوَ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ لِيَوْمِ الْحَآقَّةِ إِذَا هُمْ يُعْرَضُوْنَ، وَهُوَ مَعَارِجُ نُوْحٍ وَجَمِيْعِ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ الصَّالِحِيْنَ، وَهُوَ الْمُزَّمِّلُ وَالْمُدَّثِّرُ وَالْمَرْجَعُ فِي الْقِيَامَةِ لِلْمُذْنِبِيْنَ، هُوَ أَوَّلُ الدَّهْرِ وَآخِرُهُ وَعُرْفُ الْمُرْسَلَاتِ وَذِكْرُ الْمُلْقِيٰتِ، وَهُوَ الإِمَامُ لِأَهْلِ النَّبَإِ وَقُدْوَةُ الْمَلَائِكَةِ النَّازِعَاتِ وَالنَّاشِطَاتِ، هُوَ صَاحِبُ الْخُلُقِ الْعَظِيْمِ لِمَنْ عَبَسَ مِنَ التَّكْوِيْرِ وَالْاِنْفِطَارِ، وَالْقَاطِعُ لِلْمُطَفِّفِيْنَ بِانْشِقَاقِ الْبُرُوْجِ وَبَطْشِ الْجَبَّارِ، هُوَ الطَّارِقُ فِي الْأُفُقِ الْأَعْلَى بِغَاشِيَةِ الْفَجْرِ، وَأَقْسَمَ اللهُ لَهُ بِالْبَلَدِ وَالشَّمْسِ وَاللَّيْلِ الْحَجْرِ، هُوَ ضُحَى الإِيْمَانِ لِمَنْ شَرَحَ اللهُ بِهِ صَدْرَهُ اِنْشِرَاحًا كَامِلاً، وَافْتَخَرَ التِّيْنُ وَالْعَلَقُ بِقَدْرِهِ افْتِخَارًا شَامِلاً، وَهُوَ الَّذِي جَاءَ مَعَهُ الْبَيِّنَةُ، وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ وَالْعَادِيَاتُ بِالْقَارِعَةِ، هُوَ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْ هَلَاكِ التَّكَاثُرِ فِي الْعَصْرِ لِلنَّفْسِ الْهُمَزَةِ، الَّذِي وُلِدَ عَامَ الْفِيْلِ وَابْتَهَجَتْ قُرَيْشٌ فِي الْمَاعُوْنِ مِنَ الْكَوْثَرِ، وَانْهَزَمَ

الْكَافِرُوْنَ بِيَدِهِ بِالنَّصْرِ عَلَى أَبِي جَهْلٍ وَأَبِي لَهَبٍ، وَكَمُلَ لَهُ الإِخْلَاصُ وَتَمَّ لَهُ الْفَلَقُ وَكُلُّ عَزَفٍ، وَالَّذِي اهْتَدَى بِهِ النَّاسُ وَأُعِيْذُوْا مِنْ شَرِّ الْخَنَّاسِ، وَوَصَلُوْا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ وَاقْتَرَبُوْا إِلَى رَبِّ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ.

فإنّ سَيِّدَنا محمّدًا ﷺ هو عرشُ الحقائقِ، وسَمَاءُ الدّقائقِ، وَفَلَكُ الرّقائقِ، وشمسُ اللطائفِ، وقَمَرُ الْعَجَائِبِ، ونَجْمُ الْغَرَائِبِ، هو أَرْضُ أسرارِ الجَبَرُوْتِ وبحرُ أنوارِ الملَكُوتِ، وسِدْرَةُ النُّبُوَّةِ ومُنْتَهَى الرِّسَالَةِ، وغَوْثُ الفضائلِ وقُطبُ الشّمائل، وعَرَوسُ الْمَحَاسِنِ وسلطانُ الْمَحَامِدِ، وعَرْشُ حَقِيْقَةِ الْجَلَالِ وكُرسِيُّ مَعْرِفَةِ الْجَمَالِ، ولَوْحُ صِفَاتِ الكمال وقَلَمُ الكبيرِ الْمُتَعَالِ، والْجَامِعُ للأَمْرِ وَالْخَلْقِ وَالْمِثَالِ، هُوَ نورُ التَّجَلِّيات وحُسْنُ التحلّيات، ومقصود الوحي والتَّنَزُّلَات، وسِرّ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَاتِ، ومَعْنَى الآيَاتِ الْمُحكَماتِ، ومعرفةُ الآياتِ المتشابهات، ومفتاح أسرارِ المعقولاتِ ونورُ أنوارِ المحسوسات، وشمس

www.MinhajBooks.com

جميع الموجودات، وسراجُ عـوالِم الكائنـات، وَفَرْحَـةُ النَّسَمَاتِ، وَبَهْجَةُ النَّفَخَاتِ، وَنُزْهَةُ اللَّمَحَـاتِ، وَالنُّـوْرُ الطَّالِعُ فَوقَ السَّمٰوات، والسِرُّ اللَّامعُ في الْحَضَراتِ، مَظْهَرُ أسرارِ الذَّاتِ، ومَنْظَرُ أنـوارِ الصِّـفَاتِ، لُمْعَـةُ بُـرُوْقِ الإِشَارَاتِ، وأشِعَّةُ كَوَاكِبِ العِبَارَاتِ، وعينُ جميع الأرْوَاح، وَقلبُ جميع الأَشْبَاحِ، وزُبْدَةُ التَّسْبِيحَاتِ العَالِيَاتِ، ولُبَابَـةُ التَّقْدِيْسَاتِ الأَزَلِيَاتِ، والنُّوْرُ الأوّلُ في أرْفَعِ الْمَكَانَـاتِ، وَالرُّوْحُ الأَعْظَمُ في أعْلَى الحِجَابَاتِ، والسِرُّ الأكْمَلُ فِـي أَقْرَبِ الْحَضَرَاتِ، وعظيمُ المقامِ فِي عُلُوِّ التَّنَزُّهَاتِ، وعَزِيْزُ الْمَرَام في دُنُوِّ التَّنَزُّلَاتِ، وَالظَّاهِرُ في التَّوضِيْحَاتِ، والبَاطِنُ في التَّلْوِيْحَات، والسِرُّ في التَّصْرِيْحَاتِ، والخَفِيُّ فِي الْكِنَايَاتِ هُوَ نُوْرُ الطُّوْر، وَبَيانُ الكِتَابِ المَسْطُوْر، والمحفوظُ فِي الرَّقِّ الْمَنْشُوْرِ والمرفوعُ إِلَى البَيْتِ المَعْمُوْرِ، وَالْفائِقُ على الْبَحْـرِ المَسْجُورِ، والْجَالِسُ على الْعَرْشِ يَوْمَ النُّشُوْرِ، خَلَقَـهُ اللهُ تعالى و لم يكن في ذالک الوقتِ عـرش ولا كرسـيّ، ولا

ملكٌ ولا جنّي ولا إنسيّ، ولا جَنّة ولاَ نَار، وَلاَ ليـــلٌ وَلاَ نَهارٌ، فَخَلَقَ اللهُ مِنَ الهِدَايَةِ رَأْسَهُ، وَمِنَ الطِّيْبِ أَنفاسَـــهُ، وَمِنَ الرَّحْمَةِ وَجْهَهُ، وَمِنَ الرَّأفة قلبَهُ، وَمِنَ الفتحِ صَـــدْرَهُ، وَمِنَ الصَّبْرِ بَطْنَه، وَمِنَ السَّخَاءِ كَفَّه، وَمِنَ الذَّكَاءِ أَنْفَـــه، وَمِنَ الْحُسْنِ عينَيْهِ، وَمِنَ الْجَمَالِ خَدَّيْـــهِ، وَمِـــنْ لَذِيْـــذِ الْخِطَابِ أُذُنَيْهِ، وَمِنَ اللُّطْفِ شَفَتَيْهِ، وَمِنْ بَسْـــط الْعَطَـــاءِ يَدَيْهِ، وَمِنَ الشُّكْرِ ثَدْيَـــيْهِ، وَمِنَ الْعَظَمَةِ مَنْكِبَيْـــهِ، وَمِـــنْ قَوْسَيْنِ حَاجِبَيْهِ، وَمِنَ الْقُرْبَةِ ذِرَاعَيْهِ، وَمِنَ الْقُوَّةِ عَضُـــدَيهِ، وَمِنَ الْعَزِيْمَةِ سَاقَيْهِ، وَمِنَ التَّمْكِينِ قَدَمَيْهِ، وَمِنَ الْعَفْوِ نُطْقَهُ، وَمِنَ الصَّفْحِ خُلُقَهُ وَمِنَ الشَّرَفِ هِمَّتَهُ، وَمِنَ الْحُلُوِّ لَهْجَتَهُ. وَمِنَ الْبُرْهَانِ لِسَانَهُ، وَمِنَ السُّلْطَانِ شَـــأْنَهُ وَمِـــنَ الضِّـــيَاءِ أَسْنَانَهُ، وَمِنَ الْعِبَادَةِ ظَهْرَهُ، وَمِنَ الْمَحَبَّةِ جَنْبَهُ، وَمِنَ الْقُدْرَةِ عَزْمَهُ، وَمِنَ النَّضَارَةِ حُسْنَهُ، وَمِنَ الْعُلُوِّ شَرَافَتَهُ، وَمِنَ الدُّنُوِّ مَكَانَتَهُ وَمِنَ الكمال جَلَالَتَهُ، وَمِنَ الْجَلَالِ كَرَامَتَـــهُ، وَمِـــنْ فيض الرّحمانيّةِ جُودَهُ وَمِنْ فيض الرّبُوبيّةِ وُجُودَهُ.

أمّا بعد: فإنّ الله ﷻ يُقسِم في القرآن بأمورٍ على أمورٍ، تارةً يقسم بذاته وصفاته وتارةً يُقسم بآياته، تارةً يُقسم على التّوحيد وتارةً على النبوّة والرّسالة والوعد والوعيد، تارةً يقسم على القرآن، وتارةً على الجزاء والمعاد، والأعمال الحسنة وأحوال الإنسان، وتارة بالأشياء، والمواقع، والأماكن والأزمان، فمنها: الأمور الّتي جعلها مُقْسَمًا بها ولا يقسم عليها كالشّمس، والقمر، والنّجوم، واللّيل، والنّهار، والسّماء، والأرض، والجبال، والبحار، وجعل بعض الأمور منها مُقْسَمًا عليها. وذالک لأنّ الحكم يفصل باثنين: إمّا بالشّهادة وإمّا بالقَسَم، فذكر الله تعالى في كتابه النوعين، حتى لا تبقى للناس حجة، ومن الأصول أنه لا يكون القسم إلا باسمٍ معظّمٍ وشيء مكرّمٍ فأقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع، والباقي كلّه أقسم بمخلوقاته، قال الإمام أبو القاسم القشيري: القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين: إما لإظهار فضيلةٍ أو لإظهار منفعةٍ،

www.MinhajBooks.com

فالفضيلة كقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾[1] والمنفعة نحو: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾[2]. ومن لطائف القسم أنه تعالى أقسم لنبيّه الحبيب المصطفى ﷺ ليعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه.

فتارة أقسم الله به ﷺ وتارةً أقسم عليه ﷺ، فجعله مقسمًا به في بعض الآيات ومقسمًا عليه في بعض المقامات، تارةً أقسم بعمره وحياته ﷺ وتارةً أقسم بنبوّته وصفاته ﷺ وتارةً أقسم ببلده ومولده ﷺ، وتارةً أقسم على إنعامه عليه وتارةً على إكرامه لديه ﷺ وهذا من فضائل النّبي ﷺ بأنّ الله تعالى أقسم به وأقسم عليه ﷺ أكثر وأزيد من كل نوعٍ من الأقسام، إخبارًا عن إجلال قدر نبيّه ﷺ وتبجيله وتعظيمه ﷺ وإظهارًا لعلوّ مرتبته وكمال منزلته ورفعة مكانته ﷺ، وذلك كما لا يخاطبه

www.MinhajBooks.com

---

١. التين، ٩٥: ٢-٣

٢. التين، ٩٥: ١

ﷺ ولا يخبر عنه ﷺ إلاّ بالكناية وهي النبوّة والرّسالة التي لا شيء أجلّ منها فخرًا ولا أعظم خطرًا وخاطب غيره ﷺ من الأنبياء وأخبر عنهم بأسمائهم، ولم يذكرهم بالكناية، هذه هي غاية المرتبة ونهاية الفضيلة التي لم تثبت لأحد إلاّ للرّسول النّبي الأمّيّ ﷺ لأن من بلغ به غاية التّعظيم كنّي عن اسمه، فإن كان ملكا يقال له: أيّها الملك، وإن كان أميرًا يقال له: أيها الأمير، ولا يخاطبه بالاسم، فنحن نرى في القرآن بأنّ الله لم يقسم به باسمه بل أقسم له ﷺ بالكناية وهذه زيادة في جلالته ﷺ ونبالته وشرفه ونباهته، ومن فضائله ﷺ: أن مَن تقدمه من الأنبياء عليهم السلام كانوا يدفعون ويردون عن أنفسهم ما نسبه إليهم أعداؤهم ومكذّبوهم من السفه، والضلال، والكذب، والسحر وغيرها، ولكن نزّه الله تعالى حبيبه ﷺ عما نسبوه إليه تشريفًا له وتعظيمًا، وبرأه الله من كل ما رموه به من السّحر والكهانة والجنون والشّعر.

www.MinhajBooks.com

وذبّ الله عنه ﷺ استهزاء هم وردّ عليهم استنكارهم واستكبارهم مجيبًا عنه ﷺ تارةً مقسمًا به وتارة مقسمًا عليه، وفي بعض السّور أقسم الله له ﷺ بأقسامٍ كثيرةٍ في الرّد على طعن واحد واختار كثيرًا من أساليب القسم تأكيدًا لعصمته، وعزّته، ومنزلته وكرامته ﷺ ومن فضائله ﷺ: أن الله تعالى قرن اسْمَهُ ﷺ باسمه، وذِكْرَهُ ﷺ بذِكْره، وطاعتَه ﷺ بطاعتِه، وحُكمَه ﷺ بحُكمِه، ومعصيتَه ﷺ بمعصيتِه، وأذيّتَه ﷺ بأذيّتِه، وحرمتَه ﷺ بحرمتِه، وأمرَه ﷺ بأمرِه، ونهيَه ﷺ بنهيه، ورضاهُ ﷺ برضاهُ، وعطائَه ﷺ بعطائِه، وإغنائَه ﷺ بإغنائِه، وفضلَه ﷺ بفضلِه، ونعمتَه ﷺ بنعمتِه، ومحبّتَه ﷺ بمحبّتِه، وقربتَه ﷺ بقربتِه، وأذانَه ﷺ بأذانِه وبرائتَه ﷺ ببراءتِه، ومشاقّتَه ﷺ بمشاقّتِه، ومحادّتَه ﷺ بمحادّتِه، ومحاربتَه ﷺ بمحاربتِه، واستجابتَه ﷺ باستجابتِه.

www.MinhajBooks.com

فإن هذا الأمر متعارف عليه ومسلّم بين العقلاء والعلماء أن الأقسام لا تقع إلا على المعظّمين، والمبجّلين والمكرّمين فتبيّن بهذا جلالة النّبي ﷺ وعظمة نبوّته وكرامة الرّسول ﷺ ورفعة رسالته، وكذالک أنّ الإسمين والذِكرين والأمرين والحكمين لا يُقرنان ولا يُجمعان ولا يُشْرَكانِ ولا يشتركان إلّا للمُحِبَّيْنِ والمتقارِبَيْنِ والمتلازِمَيْنِ وَالمُستلزِمَيْنِ.

فعندما علمنا أنّ الله تعالى جعل محبّته مشروطةً بمحبّته ﷺ وطاعته منوطة بطاعته ﷺ، وذكْره مقرونًا بذكره ﷺ، وكلمته معلومة بنطقه ﷺ، وبيعته مفروضة ببيعته ﷺ، وأقسامه مقصودةً بإظهار شرفه ﷺ، وتبيانه فضيلته ﷺ فسألت التوفيق من الله تعالى أن يقدر لي أن أجمع الآيات البيّنات من القرآن العظيم الّتي أقسم الله ﷻ فيها للنّبي الحبيب المصطفى ﷺ تنزيها له وتنويها وتبجيلًا له وتعظيمًا وأن أشرحها وأفسّرها بما يتيسّر لي من

www.MinhajBooks.com

فيض عطاياه ومكنونات خزائنه ﷺ فاستعنت بالعزيز الحكيم العلّام واستخرته في جميع ذالک منه وتوسّلت بسيّدنا محمّدٍ خير الأنام ﷺ وتوجّهت إليه في جميع ما ألّفته مِنه وجمعت في هذا التأليف بعض فضائل النّبي ﷺ قد ظهرت لي من الأقسام التي ذُكرت في القرآن الكريم ونَقلتُ فيه من بعض الفوائد والفرائد من كلام الأئمة الأعلام إضافةً إلى ما أخذت وما فهمت وما استخرجتُ من بُحُور المعارف القرآنية وأنهار المعالم العرفانية ومن منابع الفيوضات النبويّة ومصادر الفتوحات المدَنيّة واستدللتُ فيه من الآيات والأحاديث الصحيحة وأقوال الصحابة والتّابعين، وتحقيق أئمة المحقّقين المعتمدين ورجوت أن يجدَ مُطالِعُه فيه ما يقصد ويريد فإني أعترفُ اعتراف عبدٍ معترفٍ بالعجز والتقصير، وأشكر الله تعالى على ما أعان عليه من قصدٍ وَيَسَّرَ من عسيرٍ وأرجو العفو والنجاة به في الآخرة من عذاب السّعير وشفاعة سيّدنا محمّدٍ البشير النذير

www.MinhajBooks.com

السراج المنير، المبعوث إلى كافّة الخلق من غـــنيٍ وفقـــيرٍ، وحسبنا اللّٰه ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير.

١. فأبتدأ بالقسمِ الأوّلِ الّذي أقسم اللّٰه تعالى فيه بنفسه المقدّسة مؤكّدًا إذ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[١] جعل اللّٰه ﷻ نَفْسَه وربوبِيّتَه في هذهِ الآية مُقْسَمًا به وجعل نَبِيَّه الحبيب ﷺ مُقْسَمًا عليه وَأَكّد بالقسم على عَدَمِ إيمان الخلق حتّى يُحكِّمُوْا رسوله ﷺ في كلّ ما شجر بينهم ولم يثبت لهم الإيمان بِمجرَّد التَّحْكيم حتّى يَنْتَفِيَ عنهم الحرج وهو ضيق الصّدر والشكّ، وتنشرح صدورهم لحكمه ﷺ كُلَّ الانشراح وتنفسح له كُل الانفساح ولم يثبت لهم الإيمان بذالک أيضًا حتّى يقبَلوا ويطيعوا حكمه وأمره ﷺ بالرضى والتّسليم، وعدم المنازعة والمعارضة.

---

١. النساء، ٤: ٦٥

www.MinhajBooks.com

الوجهُ الأوّلُ: في القَسَم: جاء ''لا'' الأولى ردًا لِزعم المنافقين، ثم استأنف قَسَمًا بعد ذالک، فعلى هذا يكون الوقف على ''لا'' الأولى تامًّا.

والوجه الثّاني: أن ''لا'' الأولى قُدّمت على القسم اهتمامًا بالنَّفي ثم كُرِّرت تؤكيدًا للنَّفي.

الوجه الثّالث: أن ''لا'' الأولى في قوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ زائدة للتّأكيد المزيد على القسم تعظيمًا للنّبي ﷺ وتفخيمًا وتنويها له ﷺ وهذا لتأكيد وجوب العلم أيضًا فمعناه: يا حبيبي، ليس الأمر كما يزعمون من أنّهُم آمنوا بما أُنزل إليک وهم لا يقبَلون ويسلّمون بِولايتک وبتحكيمک على نفوسهم وأمورهم وخيارهم ولا يجعلونک حاكمًا عليهم وحكَمًا بينهم فأقسمتُ لک بِرَبّکَ يا محمّد، بأنّه لا يؤمن هؤلاء حتّى لا يخالفوک في شيء وحتى يحكّموک فيما اختلف واختلط والتبس وأشكل ووَقَعَ بينهم من المخاصمات والمنازعات، فتقضي

www.MinhajBooks.com

بينهم فيها وحتّى لا يحسّوا في قلوبهم حرجًا وضيقًا وشكًا وريبًا وينقادوا لكل بظواهرهم وبواطنهم انقيادًا تامًّا وتسليمًا كاملاً مُذعِنِيْنَ فِي نُفُوْسِهِم لِحُكمك وقَضَائِك ومُوقِنِيْنَ بِقُلُوْبِهِم بأمرك ورضاك فإن هذَا الْقَسَمَ للنَّبِي ﷺ أوجَبَ الانقياد لحكمه في كُلّ حالٍ فبيّن أنّه لا بُدَّ أن يعتقدوا في عصمة النّبي ﷺ وتنزيهه ﷺ عن صدور الخطاء في كل حالٍ ومقالٍ فهذه إشارةٌ بليغةٌ في إقسام الله تعالى للنبي الحبيب المصطفى ﷺ.

٢. وكذلك أقسم الله تعالى به ﷺ في مواضع كثيرة في القرآن لإظهار عظيم قدره ﷺ ومنزلته ﷺ وشرفه ﷺ ومرتبته ﷺ. إذ قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾[1] وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لَعَيْشُك. وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لحياتك ومعناه: أُقْسِمُ، فقال: أقسم

---

١. الحجر، ١٥: ٧٢

بالنّبي ﷺ وحياته ﷺ إنهم لفي غفلتهم يتردّدون. روى هذا سفيان عن الأعمش أيضًا.

فأظهر الله تعالى له ﷺ نهاية البـــرّ والتشـــريف والتعظيم إذ أقسم بحياته ﷺ، وما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من النّبي الحبيب المصـــطفى ﷺ لأنه ما أقسم بحياة أحد غيره، فجعل حياته الكاملـــة مـــن الولادة إلى الوفاة معصومًا مأمونًا طاهرًا مطهرًا ومنـــزّهًا عن كل عيب ودنس وريب وخطاءٍ قبل بعثته ﷺ وبعدها لأنّه لم يُقسم ببعثه ﷺ بل أقسم بعمره ﷺ.

٤/٣. وكذلك قال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾[1] وقيل: هذا من أسمائه ﷺ وصحّ فيه أنه قسمٌ كان فيه من التّعظيم والتّمجيد والشّهادة بأنّه ﷺ من المرسلين وذكر النُّحاس قول عِكرمة، قال: هو قَسَم فأقسم الله تعالى بـــ: ﴿يسٓ﴾ وبـــ: ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾،

---

١. يس، ٣٦: ١-٣

قال النّقاش: لم يُقسم الله سبحانه لأحد من أنبيائه بالرّسالة في كتابه إلا لمحمدٍ ﷺ تعظيمًا له وتمجيدًا فقال في ''إنسان العيون'': من خصائصه ﷺ أنّ الله تعالى أقسم على رسالته ﷺ بقوله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾ قال سعيد بن جبير وغيره: هو اسم من أسماء محمّد ﷺ دليله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾ وقال الحموي:

يَا نَفْسُ لَا تَمْحَضِي بِالْوُدِّ جَاهِدَةً

عَلَى الْمَوَدَّةِ إِلَّا آلَ يَاسِيْنَا

ومنه قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾[1] أي على آل محمّدٍ ﷺ، كما قرأ زيد بن علي ونافع وابن عامر: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ وروى الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: يريد يا إنسان، يعني محمّدًا ﷺ وقال أبوبكر الورّاق: معناه: يا سيّدَ البشر، وروى السُّلمي عن الإمام جعفر

---

١. الصافات، ٣٧: ١٣٠

الصادق رضي الله عنه: أن معناه يا سيّد، ورجّح الزّجاج: أن معناه يا محمّد، وقال كعب: هو قَسَمٌ أقسم الله به ولا شك بأن "الواو" في ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ قسمٌ أو أنه مُقسَم به فمعناه: يا سيّد، يا محمّد، أقسم بك وبكتابك القرآن، ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾ أي إنّك أكمل الرّسل وأفضل الكل، وذكر القشيري معناه: يا سيد، ويقال: "الياء" في ﴿يسٓ ۝١﴾ تشير إلى يوم الميثاق، فمعناه: يا سيّد الرّسل، أقسم بيوم الميثاق، ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾ وأقسم بالقرآن الحكيم، إنّك ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤﴾.[1]

www.MinhajBooks.com

---

١ يس، ٣٦: ٤

٦/٥. وكذلك أقسم الله تعالى في سورة ''ص'' بقوله: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾[1].

قال الضّحاك في روايةٍ عنه ﴿صٓ﴾ إنّه قَسَمٌ أقسم الله به وكما قال البغوي، والقرطبي، والقشيري، والواحدي، وابن القيم وغيرهم.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿صٓ﴾ معناه صدق محمّدٌ ﷺ، وذكره أبو الحسن الواحدي وهو نقله عن الأخفش، وقال البغوي والخازن: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾: أقسم الله ﷻ في القرآن بأنّ محمدًا ﷺ لصادقٌ، ومجاز الآية: أنّ الله تعالى أقسم بـ: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكّة ﴿فِي عِزَّةٖ﴾ أي حميّةٍ جاهليةٍ وتكبّرٍ عن الحق ﴿وَشِقَاقٖ﴾ أي خلافٍ وعداوةٍ لمحمّدٍ ﷺ.

www.MinhajBooks.com

---

١. ص، ٣٨: ١-٢

وقال القرطبي: وله في ذالك ثلاثة مذاهب وأحدهُنّ: إنّه قَسَمٌ وقيل معناه: ''صَادَ'' محمّدٌ ﷺ قلوبَ الخلق واستعمالها حتّى آمنوا به، وقال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ أي ما الأمر كما يقولون مِنْ أنّك ساحرٌ كذّابٌ لأنّهم يعرفونك بالصّدق والأمانة بل هم في تكبّرٍ وامتناعٍ عن قبول الحق.

وهناك بعضُ ملاحظات في هذه الآيات: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ وقوله: ﴿صٓ﴾ يكون هذا النوع بحرفِ الْقَسَم مجرّدًا، وجواب القسم فيه محذوفٌ، ولا يُرادُ ذكره، بل يُرادُ تعظيم المُقسمِ به، فَحُذِفَ جوابُ القسم في القرآن في مواضع كثيرةٍ. قال ابن القيم: هذا القسم كقول مَنْ حَلَفَ بشخص أَنَّهُ يُحبُّه، ويُعظِّمُهُ، فقال: والذي ملأ قلبي مِن محبّتك وإجلالك ومهابتك، وكمن أراد أَن يُقْسِمَ على عُلُوِّه تعالى فوق عرشه فقال: والّذي استوى على عرشه،

www.MinhajBooks.com

فوق سماواته، يصعد إليه الْكَلِمُ الطيّب، وتُرفَعُ إليه الأيدي، وتعرج إليه الملائكة والرّوح، ونحو ذلک لم يحتج إلى جواب القسم، وكان في المُقسَم به ما يدل على المُقْسَم عليه، فَإنَّ في المُقْسم به مِنْ تصديق النبي محمد ﷺ وتعظيمه ووصفه ﷺ بأنّه صادقٌ وتصديق القرآن وتعظيمه ووصفه بأنّه ذو الذكر، والشرف، والمكانة، المتضمّن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه، وهذا لإظهار الشرف والقدر والعَظَمة لهما، وهذا ما يدلّ على المُقْسَم عليه، وهذا قول كثير مِنَ المُفسِّرين. متقَدِّميهم ومتأخّريهم بأنّ الجواب محذوف. وقال أبوالقاسم الزَّجّاج: قال النحويّون: إنَّ ''بل'' فِي ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، تقع في جواب القَسَم كما تقع ''إنّ'' لأنّ المراد بها توكيد الخبر، وهذا القول اختيار أبي حاتم، وحكاه الأخفش عن الكوفيّين وقال الفَرَّاء: ﴿صٓ﴾ جواب القسم، فهي جواب لقوله ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾.

www.MinhajBooks.com

وذكر الشّوكاني عن عطاء أيضاً: ﴿صٓ﴾ معناه صِدْق محمّدٍ ﷺ، أي أقسمتُ بـ: ﴿صٓ﴾ وَبـ: ﴿ٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾، إنّه لمعجزٌ، أو الواجب العمل به، أو أن محمّدًا لصادقٌ.

وذكر البيضاوي وجهًا آخر في ﴿صٓ﴾ وقال: ''الواو'' في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ للقسم، إن تُجْعَلُ ﴿صٓ﴾ اسمًا للحرف مذكورًا للتحدّي أو للرّمز بكلام، مثل: صِدْق محمّدٍ ﷺ أو الواو للعطف إن جعل مُقْسَمًا به، أي: أقسمت بـ: ﴿صٓ﴾ وَبـ: ﴿ٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾، والجواب محذوف، دلّ عليه ما في ''ص'' من الدلالة على التحدّي كما ذكرناه متقدّمًا، وفي الوجه الأول يكون معنى الآية: أي أقسم بالقرآن ذي الذّكر، والشرف، والرفعة إنّه لمعجزٌ وإنّ محمّدًا لصادقٌ فيما يدَّعِيه مِنَ النبّوة وإنّه مرسلٌ مِن ربّه إلى الأسود والأحمر وإنّ كتابه ﷺ لمُنزّل من عنده تعالى، ولما كان الإقسام دالاً على صدق نبي ﷺ

www.MinhajBooks.com

وصدق كتابٍ وأنّه ليس بمحل للرّيب لأنّه تعالى قال مُبيّنًا للسَّبَبِ الحقيقيّ في كفرهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾[1] وهو مجرّد الخِصَامِ، والشّقاق، والحميّة، والعداوة معناه: بل كَذَّبُوْا لمُشَاقَّتِهِمْ لرسول الله ﷺ وحِرصهم على عداوته ومخالفته.

ذكر أبو حيّان في ''البحر'' قال الفرّاء وثعلب: بأنّ المعنى والقرآن لقد صَدَقَ محمدٌ ﷺ وهذا بناءٍ منها على جواز تقديم جواب القسم، وقال ابن عطية وابن مالك: أنّ جواب القسم محذُوْفٌ، وتقدير الكلام يكون: ما الأمر كما تزعمون، ودلّ على هذا المحذوف قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقال الزمخشري: أنّه لمعجزٌ، وقال أبو حيّان: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِيْنَ، وقال نظيره: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾[2].

www.MinhajBooks.com

---

١. ص، ٣٨: ٢

٢. يس، ٣٦: ١-٣

والمراد بكون القرآن ذي الذّكر، أي ذي الشرف لِأنّه قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾[1] وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾[2] وقال القتيبي أيضًا في ''التّأويل'': ورد ''بَلْ'' لتدارك كلامٍ ونفي آخر، ومجاز الآية يكون: إن الله أقسم بصاد والقرآن ذي الذّكر، إنّ الذين كفروا مِنْ أهل مكّة في عزّةٍ، وحميّةٍ جاهليّةٍ، وتكبّرٍ عن الحق، شقاق خلاف وعداوةٍ لمحمّدٍ ﷺ فأقسم الله تعالى بصِدْقِ محمدٍ ﷺ وشأنه وشَرَفِ القرآن ومكانته للرّد على زعم الكفار، وذَكَرَ زعمهُمْ: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾.[3] فَرَدَّ الله زعمَهُمْ وتَعجُّبَهُمْ بقوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩﴾.[4]

---

١. الزخرف، ٤٣: ٤٤

٢. الأنبياء، ٢١: ٥٠

٣. ص، ٣٨: ٤

٤. ص، ٣٨: ٩

www.MinhajBooks.com

لما حكي عن الكفّار في كونهم ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ أَتْبَعَهُ بشرح كلماتهم الفاسدة فقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[1] أنهم زعموا أن محمّدًا ﷺ مُسَاوٍ لَنَا في الخِلقة الظّاهرة، والنّسب، والشّكل والصّورة البشرية، فكيف يُعْقَلُ أَن يُخْتَصَّ مِنْ بيننا بهذا المنصب العالي؟ وهو يَدْعُوهم إلى التّوحيد، والترغيب في الآخرة، وقوله في ردّهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾[2] يعني مفاتيح نعمة ربّك والنبوّة يعطونها من شاءوا ولِمَنْ أرادوا، ونَظِيْرُه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ معناه: هو الغالب والمعطي بغير حساب.

وهو الّذي له أن يهب كلّ ما يشاء، لمن يشاء، فالنبوّة عطية مِنَ الله تعالى، يتفضّل بها على من يشاء من عباده ولا مانع له ولاحساب عليه فالحاصل أنّ سياق

---

١ ص، ٣٨: ٤

٢. ص، ٣٨: ٩

٣. الزخرف، ٤٣: ٣٢

www.MinhajBooks.com

الكلام أيضًا يقتضي بأن القسم هو لصِدق نبوّة محمّدٍ ﷺ، فبدأ الله تعالى هذه السُّورة بالإقسام لِعَظَمة النّبوّة وهي النّبوّة المحمّدية ﷺ وختمها أيضًا بذكر عَظَمَةِ النّبوّة وهي نبوّة آدم عليه السلام وذكر في البداية ردًّا على الكفّار والمشركين الّذين كذّبوا سيّدنا محمّدًا ﷺ لشقاقهم وعداوتهم واستكبارهم له ﷺ وذكر في النّهاية أيضًا ردًّا على إبليس الّذي أنكر السَّجُودَ لآدم واستكبر، فلذلك ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾[1] فسأله عن إنكاره على التّعظيم لنبوّة آدم عليه السلام بشكل السّجود مشافهةً بقوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ

---

١ ص، ٣٨: ٧٤

لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.[1]

وذكر الله تعالى في بداية السّورة تعجّبهم بعد الإقسام بصِدْقِ نبوّةِ محمّدٍ ﷺ كما قالوا بقوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[2] وأجابهم الله تعالى في آخر السّورة مرّةً أخرى قبل ذِكْرِ السَّجود لآدم عليه السلام وإنكار إبليس بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾[3] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾.[4]

وقال أبو حيّان في "البحر المحيط": الضمير في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ﴾ يعود على ما أخبر النّبي ﷺ مِنْ كونه رسولاً مُنْذرًا، داعِيا إلى الله تعالى... وهو خبرٌ عظيمٌ لا يُعْرِضُ عن مِثله إلاّ غافلٌ شديد الغفلة.

---

١. ص، ٣٨: ٧٥-٨٣

٢. ص، ٣٨: ٤

٣. ص، ٣٨: ٦٥

٤. ص، ٣٨: ٦٧-٦٨

www.MinhajBooks.com

وقال المراغي: والمعنى: أي قل لهم يا محمّد (ﷺ): إن ما أنبأتكم به، مِنْ كوني رسولاً مُنْذرًا، ومِن أنّ الله واحدٌ لاشريک له خبرٌ عظيم الفائدة لكم، فهو يُنقذكم مما أنتم فيه من الضلال، لكنّكم معرضون عنه، لا تفكّرون فيه، فذكر مِن الأدلّة ما يرشد إلى النبوّة وعظمتها ثم ذكر بعده بهذه المُنَاسَبَةِ قصة الخِلْقِيّةِ الآدميّة وذكر خِلْقته البَشَرِيّةَ، وَتَسْوِيَةَ ظاهرها وخِلْقَتَهُ البَاطِنِيّةَ وَالنَّفخ في بَاطِنِها مِن رُّوحه تعالى، فجعل البشريّة ظاهره والنّورانيّة باطنه، وذكر في هذا المقام أمره بالسّجود لآدم عليه السلام تعظيماً للنّبوّة، فقال: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾[1] لإبائه وإستكباره عن أمر الله تعالى له بسَجُود آدم عليه السلام تعظيمًا للنّبوّة وتكريمًا لها، بعد أن كان مُسْلمًا مُوَحّدًا عابدًا لله سبحانه مع الملائكة، نحو ثمانين ألف سَنَةٍ، وطاف بالبيت أربعة

---

١. ص، ٣٨: ٧٣-٧٤

عشر ألف عام، لقد أخطأ الشّيطان اللعين حيث خَصَّ الفَضْلَ بما مِنْ جِهَةِ المادّةِ والعنصرِ والصُّورةِ الظاهرة وزلّ عمّا هو مِنْ جِهَةِ الخالق الفاعل المعطي، كما أنبأ قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1] وما مِنْ جهةِ الباطن والسّيرة النّورية. كما نبّه عليه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[2] وما مِنْ جهة المنـــزلة العلمية الرفيعة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[3] وما من جهة النبوّة، وهي الخلافة الإلهية، كما أخبر بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[4] ولذالک أمر الملائكة بسجوده، حين ظهر لهم أنّه عليه السلام أعلم منهم، وأفضل منهم، وأكرم منهم وأكمل منهم وأقرب إليه منهم وأحبّ إليه منهم، ولكن الشّيطان أنكر واستكبر على عُلُوِّ النبوَّةِ ورفعتها وعَظَمَتِها،

---

١. ص، ٣٨: ٧٥
٢. الحجر، ١٥: ٢٩
٣. البقرة، ٢: ٣١
٤. البقرة، ٢: ٣٠

www.MinhajBooks.com

فأَبْعَدَهُ الله تعالى عن رحمته وقطع عنهُ فَيْضَهُ وتوفِيْقَهُ وجعله مَلْعُونًا مَذْمُوْمًا إلى يوم القيمة. فأقسم الشّيطان لِتمام شَقَاوَتِهِ وَقَالَ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [1] أي لَأُضِلَّنَّ ذُرِّيَّةَ آدم فمعناه: أي لأكوننّ سببًا لِغِوايتهم وضلالتهم بإدخال الشّكوك والشّبهات فيهم، وبإدخال فكر الإهانة والتَّنْقِيْصِ لِشأن النّبوّة في عقائدهم، كما وقع في أمر ضلالتي وصدر في أمر غوايتي. وإقسامُه كان بمعنى: لأجعلنّهم المنكرين، والطاعنين، والشّاتمين، والمتنقّصين في شأن النّبوّة والرّسالة، والمستكبرين والمستنكرين على الأنبياء والرسل عليهم السلام عن سبيلِ التشكيك والارتياب في مكانتهم، وعن طريق التقابل والتّساوي معهم، ومن اتّبعوني منهم فَهُمْ يتوجّهون ويُركّزون إلى الصّفات المثليّة والبشريّة في حياة الأنبياء وينصرفون عن أُمور العظمة والفضيلة والمعجزة

www.MinhajBooks.com

---

١. الحجر، ١٥: ٣٩

فيهم، ولذلك أقسم الله تعالى بعظمة النبوّة في البداية وجعل تَنْبيها نبيها في النهاية لتأمّل المؤمنين وتفكّر العالمين.

٧. وكذلك أقسم الله تعالى في قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾[١] فالقيل مصدر كالقول، قال أبو عُبيد يقال: قلتُ قولاً وقيلاً وقالاً، بمعنى واحد، جاءت المصادر على هذه الأوزان، كما في النّساء: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾[٢] أي قولا. قرأ حمزةُ وعاصمٌ بالجرّ (فانظروا في قرءات ﴿وَقِيلِهِۦ﴾: السبعة، والنشر، والبحر، والحجّة، والمحتسب، والتيسير والقرطبي وغيرها). والبعض بالنَّصَب أو الرّفع والضمير في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ راجعٌ إلى النّبي ﷺ كما صَرَّحَ به قتادة رضي الله عنه وثبت بقول ابن عباس رضي الله عنهما ونافعٍ رضي الله عنه وابن عامر رضي الله عنه وغيرهم. وأنّ الواو حرف جرٍّ وقَسَمٍ، والجار والمجرور متعلق بفعلِ قسمٍ،

www.MinhajBooks.com

---

١. الزخرف، ٤٣: ٨٨

٢. النساء، ٤: ١٢٢

والجواب إمّا محذُوفٌ تقديره: لَتُنْصَرُنَّ أو لَأَفْعَلَنَّ بهم ما أريد، وإمّا مذكورٌ وهو قوله: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ كما ذكره الزمخشري، فمعناه: أُقْسِمُ قيله أو بقيله أي بقول محمدٍ ﷺ: ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ وهذا قوله ﷺ شاكيا إلى ربّه تبارك وتعالى قومه الّذين كذّبوه وما لقي منهم شديد الأذى: يا ربّ، إنّ هؤلاء الذين أمرتني بإنذارهم وأرسلتني إليهم لدعائهم إليک قوم لا يؤمنون أي لا يريدون الإيمان.

وكما رُوي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ قال: فأبر الله سبحانه وتعالى قول محمّد ﷺ. وفي رواية أخري قال مجاهد في قوله تعالى هذا: يؤثر الله سبحانه وتعالى قول محمّد ﷺ كما ذكر الطبري والقرطبي وغيرهما.

www.MinhajBooks.com

وعن قتادة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ قال: هذا قول نبيّكم عليه

الصلاة والسلام يشكو قومه إلى ربّه وفي تفسير الجلالين: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ أي قول محمد النّبي ﷺ وفي تفسير البغوي: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ يعني قول محمّد ﷺ شاكيا إلى ربّه وفي تفسير البحر المحيط أنه يجوز في إعراب ﴿قِيلِهِۦ﴾ الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، والرفع على قولهم: أيمن الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولعمرك، ويكون قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾، جواب القسم، كأنه قال: وأقسم بقيله، أو وقيله يا رب قسمي.

ثم خاطب الله تعالى النّبي الحبيب المصطفى ﷺ تهديدًا للمشركين ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي أعرض عنهم وأمهلهم ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾. قال سيبويه: معناه: سلامُ المتاركة، ويجوز أن يكون ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ خبرٌ لمبتدإ محذوف، تقديرة: "قل لأعدائك أنّ أمري وشأني سلامةٌ مِن أذيتكم وبراءةٌ مِن ضلالتكم." ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾[1] أي سَوْفَ

---

١. الزخرف، ٤٣: ٨٩

تَعْلَمُوْنَ كما قرأ نافع وابن عامر بتاء الخطاب التفاتًا على أنّه مِن خطاب النّبي ﷺ للمشركين بالتهديد، وهو وعيدٌ مِنَ الله تعالى تسليةً لرسوله وحبيبه ﷺ ومعناهُ: سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ: تجدون عقوبة ما تستوجبون وهلاكة ما تستحِقّون.

٩/٨. وكذلك أقسم الله تعالى في قوله: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾[1] قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿قٓۚ﴾ هو قَسَمٌ، لمّا أقسم بالأشياء المعهودة ذكر حرف القسم وهو الواو كما قال ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾[2]، ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾[3]، ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾[4] وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم، فلم يقل: ''وق''، ''وص''، ''وحٰم''، ''ون'' لأن

---

١. ق، ٥٠: ١-٢

٢. الطور، ٥٢: ١

٣. النجم، ٥٣: ١

٤ الشمس، ٩١: ١

www.MinhajBooks.com

القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسمًا فلم يورده في موضع كونه آلة القسم تسويةً بين الحروف. ولذلک حُذِفَ حرف القسم وهو ''الواو'' في هذا المقام. فإنّ الله تعالى أقسم بقوله: ﴿قٓ﴾ وأقسم أيضًا بقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيْدِ﴾ جعل اللهُ النّبيّ الحبيب سيّدنا محمّدًا ﷺ مُقْسَمًا به في القسم الأوّل: ﴿قٓ﴾، وَمُقْسَمًا عليه في القسم الثّاني: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيْدِ﴾. قال ابن عطاء في ﴿قٓ﴾: ''أقسم الله جَلَّ جَلَالُهُ بقُوَّةِ قلب محمّدٍ ﷺ حيث حمل الخطاب والمشاهدة ولم يؤثر ذلک فيه لِعُلُوِّ حاله ﷺ. رواه السُّلَمي والقرطبي. فأمّا القسمُ الثاني، فالقرآن مُقْسَمٌ به فيه، فكيف نفهم ما المُقْسَمُ عليه، فالجواب: أنّ المُقْسَمَ عليه إمّا يُفهم بقرينةٍ مقاليةٍ أو قرينةٍ حاليةٍ فيكون التقدير في القرينة المقالية ''هذا: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ أي نُقْسِمُ بالقرآن المجيد هذا قلبُ محمّدٍ ﷺ الّذي حمل كلامي وخطابي بكمال قوته وعُلُوِّ حاله. '' وأمّا القرينة الحالية،

www.MinhajBooks.com

فقال ابن الخطيب: هو كون محمّد ﷺ على الحق فإنّ الكفار كانوا ينكرون ذالک ذكره القشيري والفخر الرازي والقرطبي وغيرهم وفي قوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾[1] توجد دلالةٌ صريحةٌ واضحةٌ واثقةٌ بأن النّبيّ المعظّم ﷺ هو المقسم عليه، فبذلک قال الأخفش: أقسم الله بالقرآن بأنّک يا محمّد، لنبيٌّ منذرٌ، فيكون التقدير: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ إِنَّكَ لَمُنذِرٞ﴾، وهذا جواب ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ لأنّهم لم يكتفوا بالشكّ ولا بالردّ حتّى عَجِبُوْا وجَزَمُوْا بالخلاف وجعلوا مجيئه ﷺ وبعثه ﷺ مِنَ الأُمُوْر العجيبة المُسْتَنْكَرةِ، فَبَينَ التّكرار الصّريح في التعجُّب والإنكار في قولهم كما ذكر بعد القسمين: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ وهذا التّكرار في ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ و ﴿شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ يدلّ على شدّة إنكارهم بالرّسالة المحمّدية ﷺ لأنّه لا شكّ في هذا

---

١. ق، ٥٠: ٢

الأمر ''بَمَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ'' فهذا المُنْذِر هُوَ محمّدٌ رسول الله ﷺ الّذي جاءهم وصرّح القرآن في هذه الآية لماذا تَعجَّبَتِ الكفّار، فَوَجْهُ تَعَجُّبِهِم كان مجيئه ﷺ وبعثهُ ﷺ لأنّهم كانوا يقولونَ بقوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾[1] و ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.[2] وذلک إشارةٌ إلى أنّه كيف يجوز اختصاصه بهذه المنـــزلة الرفيعة مع اشتراكنا في البشرية ولوازمها، فهذا كان وجه استكبار إبليس، إذ أنكر أن يسجد لآدم عليه السلام إذ سأله الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾[3] فأجاب: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾[4] وقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾[5] فإنّ الكفّار كانوا

---

١. القمر، ٥٤: ٢٤

٢. يس، ٣٦: ١٥

٣. الحجر، ١٥: ٣٢

٤. الحجر، ١٥: ٣٣

٥. الأعراف، ٧: ١٢

www.MinhajBooks.com

يقولون مثله: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾[1] فذكر الله تعجّبهم وإنكارهم واستكبارهم بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾[2] فتبيّن لنا أنّ سبب إنكارهم عن قبول الرّسالة كان للأمرين: الأوّل: البشريّة، والثّاني: زَعْمُهَم لِلمثليّةِ، لأنّهم كانوا يقولون: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[3] إنّهم كانوا ينظُرُون إلى الظّاهر ولا ينظرون في الباطن، كما قال الله تعالى في خلق آدم عليه السلام: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨﴾[4] وأمر بعد هذا القول: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾[5] فإنّ الشّيطان نظر إليه ولم ينظُر فيه، فتردّد لأجَلِ البَشَرِيّة الّتي كانت حالة ظاهرة ولم يَتَوَجَّه إلى الحالة الباطنة الّتي فُضِّلَتْ بالرُّوح الإلهية ونُوّرت بالأنوار

---

١. القمر، ٥٤: ٢٤
٢. ق، ٥٠: ٢
٣ يس، ٣٦: ١٥
٤. الحجر، ١٥: ٢٨
٥. الحجر، ١٥: ٢٩

www.MinhajBooks.com

الصَّمَدِيّة فأمّا الملائكة بعدما نظروا مِنَ الظاهر توجّهُوا إلى الباطن لأنّهم علموا وفهموا وعرفوا فضيلة النبوّة على غيرها و لم يتردَّدُوْا في البشرية والمثليّة بِسَبَبِ ظاهرِ لَوَازِمِهَا، فهذا الشكّ والتردّد والارتياب كان سببًا لإنكار الكفّار وتَعَجُّبِهِمْ على رسالة سيّدنا محمّدٍ النّبي المصطفى ﷺ فردّ الله تعالى على هذا التَّعَجُّبِ بالقَسَمين: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ وأقام برهانًا تامًّا على صدق نبوّته ورسالته ﷺ فقوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ يقتضي أن هناک أمرٌ مضروبٌ عنه فما ذالک؟ فأجاب الواحدي ووافقه الزمخشري أنّه تقديرٌ كأنه قال: ما الأمر كما تقولون وقال ابن الخطيب: التقدير ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ إِنَّکَ لَمُنْذِرٌ فإن شكوا فيک يا محمّد، وعجبوا على مجيئک فإنّهم كاذبون لأنّ الحقّ لا يُكَذَّبُ بل المكذّبون هم الكاذبون.

www.MinhajBooks.com

١٤/١٠. وكذلك أقسم الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾.[1]

فالطّور جبل سينين وهو سيّد الجبال، وهو المكان الّذي كَلَّمَ اللهُ تعالى عليه موسى عليه السلام وقال القشيري رحمه الله: أقسم الله به لأنّه الموضع الذي سَمِعَ فيه مُوسى ذِكْرَ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وذكر أمّته صلى الله عليه وآله وسلم فأقول يحتمل أن يكون سبب آخر لهذا القسم لأنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لّما بدء السّفر من المسجد الحرام ليلة الإسراء انتقل إلى طُوْرِ سيناء ونزل به قبل ذهابه صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسجد الأقصى كما جاء في الحديث صحيحًا. وفي القسم الثاني: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾ أقوالٌ وأرجح الأقوال هو ''القرآن المجيد'' لأنّه كتاب أنزل على سيّدنا النّبي محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وهو أيضًا سيّد الكتب. ثم أقسم بسيّد البيوت وهو البيت المعمور فالمشهور أنه البيت

---

١. الطور، ٥٢: ١-٦

في السّماء العليا تحت العرش بحيال الكعبة، حرمتهُ في السّماء كحرمة الكعبة في الأرض وهذا البيت الّذي انتقل إليه النّبي الحبيب المصطفى ﷺ أيضًا ليلة الإسراء والمعراج كما ورد في الحديث الصحيح. وقيل هو البيت الحرام ولا ريب أنّ كلا منهما معمور، وهذا قبلة النّبي المصطفى ﷺ الّتي اختارها وحوّل وجهه إليه في الصّلاة فكل منهما سيّد البيوت فكل أحد من البيتين، منسوبٌ إلى الحبيب ﷺ. فأما الكعبة، فهي بدايةُ سفره ﷺ في ليلة الإسراء والطور وبيت المقدس كانتا منـــزلتين من سفره الأرضي، والبيت المعمور كان أحدًا من منازله في سفره السّماويّ. وقوله: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ يعني السّماء، هي كانت طريقه إلى الجنّة وسدرة المنتهى والعرش وآيات ربّه الكبرى حتّى وصل إلى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾[1] وهذه كانت نهاية سفره في المعراج كما روى

---

١. النجم، ٥٢: ٨-٩

البخاريُّ عن أنسٍ رضي الله عنه: «ودَنَا الجَبَّارُ رَبُّ العِزَّة فَتَدَلَّى حَتَّى كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» وقوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُوْرِ﴾ هو آية عظيمة مِنْ آيات ربّه الكبرى وعجائب ليلة الإسراء الّتي رآها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هو البحر المملوء الّذي تحت العرش، وبين أعلاهُ وأسفله مسيرة خمس مئة عامٍ كما روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما وأخرجه أبو داود، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فتضمّن القَسَمُ في هذه السُّورة خمسة أماكن وأشياء فَلِكُلِّ أحَدٍ منها نسبةٌ جليلةٌ وعلاقةٌ لطيفةٌ بالنّبيّ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فجعل الله تعالى الأشياء المقدّسة والأماكن المباركة مُقْسَمًا بها ونبيّه المكرّم صلى الله عليه وآله وسلم مُقْسَمًا عليه.

١٥. وكذلك أقسم الله تعالى به صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ

www.MinhajBooks.com

ٱلْهَوَىٰ ﴿٢﴾[1] وقال الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام: النجم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعناه بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾: أي إذا نزل من السّماء ليلة المعراج. وقال أيضًا: النّجم قلبُ محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأقسم الله تعالى بقلبه صلى الله عليه وآله وسلم إذا هوى أي انشرح من الأنوار أو انقطع عن جميع ما سوى الله جل جلاله وما أعوج عن طريق استقامته قطّ وقال تعالى بمعنى: ما ضلّ حبيبي عنّي لمحةً وما احتجب عنّي بشيء لحظةً. وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ما ضلّ عن قربه طرفة عين. وقال ابن عطاء: ما ضل عن الرؤية طرفة عين. وقال سهل التستري: ما ضلّ عن حقيقة التّوحيد لحظةً. وقال الشبلي: ما رجع عنّا منذ وصل إلينا ويقال في الحُبِّ: ''هَوِيَ'' بالكسر يهوَى هويّا، معناه: نقسم بقلبِ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إذا اشتد فيه حبه لله وما أضلّه هذا الحب عن الأدب إلى الغيّ.

www.MinhajBooks.com

---

١. النجم، ٥٣: ١-٣

١٨/١٦. وكذلك جعل الله تعالى نبيّه ﷺ مُقْسَمًا عليه بالأقسام في سورة القلم، فأَقْسَمَ بقوله: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾[١] فخاطب الله حبيبه ﷺ بعد القسمين: ﴿مَآ أَنتَ﴾ أي يا محمد ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾[٢] انتفى الجنون عنك بسبب إنعام ربك عليك بالنّبوّة وغيرها وردٌ لقولهم هذا: إنّه مجنون، كما قال السَّيوطي، وقال ابن زيد في ﴿نٓ ۚ﴾: هو قَسَمٌ أقسم الله تعالى به، وروى معاوية بن قرّة عن أبيه مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: «﴿نٓ ۚ﴾ لَوْحٌ مِنْ نُوْر». ورواه ابن كثير والقرطُبي وغيرهما، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أوّل ما خلق الله القلم، ثم خلق النُّون وهي الدواة» وروى ابن عباس رضي الله عنهما والحسن البصريّ وعكرمة، وقتادة، والضحّاك مثله، وأخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن

www.MinhajBooks.com

---

١. القلم، ٦٨: ١

٢. القلم، ٦٨: ٢

عساكر وغيرهم، وذكره ابن كثير، والقرطبي، والبغوي، والرازي وغيرهم.

فأقسم الله بالقلم بأنّه، كتب به عَلَى اللّوح ما كان وما يكون وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة مِنْ جميع العلم، ثم ختم فم القلم، فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيمة، كما جاء في الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثُمَّ أقسم بسطرِ الملائكة أو بِمَسْطُورِهم فيحتمل أن يكون معناه: أي أقسم بالقلم وبما يكتب به من الكتاب، وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة والسّدي: ﴿مَا يَسْطُرُونَ﴾ يعني ما تكتب الملائكة مِنْ عمل العباد وهم الحفظة الموكّلون، وقال ابن أبي نَجِيح عن مجاهد: والقلم يعني الّذي كتب به الذكر، فأقول فلا مانع للاحتمال في هذا المقام من أن يكون معنى الذكر، ذكر حَبِيْبِه محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وصفة نُبوّته صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد في جواب القسم ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾

www.MinhajBooks.com

بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦﴾[1] فَذَكَر مُقْسَمًا عليه في خمس آيات وردّ الكفار والمعاندين والحاسدين والطّاعنين في شأن النّبي ﷺ أشدّ ردٍّ ونفي عنه اتّهام الجنون الّذي كان من قِبَل الكفار الضالّين المفتونين، وقال بمعنى: يا محمّد، أنت برئ مِنهُ، مُتَلَبِّسٌ بنعمة ربّك مِنَ النبوّة والرّسالة والرّياسة العامّة والزّكاوة التامّة وحصانة العقل ورزانة الرأي والفهم وجلال الفضل والنعم، ولأنواع المعارف والعلوم والجوامع مِنَ الْكَلِم والحِكَم، والمراد تنـــزيهه عليه السلام عمّا كانوا ينسبونه إليه ﷺ مِنَ الجنون حسدًا وعداوةً ومكابرةً، لأنّ الجنون حائل بين النفس والعقل، وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج: إنّما قالوا استِبْعَادًا منهم ما ادّعاه النّبي ﷺ من الرّسالة مِنَ الله وما ارتكبهُ النّبي ﷺ مِنْ مخالفة جميع الناس في أيّام العسرة واستيلاء ظُلمةِ الكفر ولمّا كان هذا الاستبعاد منهم مستقرًا قويًا في زعمهم أكّدُوا قولهم إنك

---

١. القلم، ٦٨: ٢-٦

لمجنون بأن ولام القسم بناءً على شدّةِ إنكارهم فأكَّدَ اللهُ تعالى الجواب بالأقسام وزيادةِ الباء في الخبر بتأكيد النفي، وفيه نفي الجنون عنه ﷺ بحال تلبّسه ﷺ بنعمة الله ليكون هذا التأكيد مع قيد النعمة بمنـــزلة البيّنة والبرهان على النفي والرّد، فإنّه مَنْ كان بهذه المثابة مِن العلم والعقل والفهم والكمال في الخُلُق والطُّرُق فالقول فيه بأنّه مجنون سفسطة، لا يقول به إلّا مَنْ هو ضَالٌ ومفتونٌ ومُدْهِنٌ وكذّابٌ ومَهِينٌ، حقيرٌ، ذليلٌ وهمّازٌ، عيّابٌ، طعّانٌ، ومَشّآءٌ نقّالٌ، قتّات نميمٌ، ومنّاعٌ لِلْخَيْرِ ومُعْتدٍ، متجاوزٌ، أثيمٌ، وعُتُلٌّ، فَظٌّ، غليظٌ، جوّاظٌ، وزَنِيمٌ، والزَّنيم هُوَ ملحقُ النَّسَبِ الّذي لا أصل له وهُوَ وَلَدُ الزِّنَا والفاحش واللئيم كما ذكره ابن جرير، وابن كثير، والقرطبي، والبغوي، والرازي، والخازن، والجمل وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، والضَّحَّاك، وسعيد بن المسيّب، وعكرمة، والحسن، وسعيد بن جبير، والثوري وغيره. وقال أبو حيّان

في ''البحر المحيط'' قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ قَسَمٌ أيضًا، واعترض به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التأكيد والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذّميم عن الحبيب ﷺ، وذهب إلى القسم أيضًا الشيخ نجم الدين في ''تأويلاَتِه'' والمعنى، أي: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾ قيل: النعمة هنا الرحمة، والآية ردٌ على الكفار حيث قالوا: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝﴾[1] فَمَعْنى الآية: يا محمد! أقسم بِنِعْمةِ ربّك عليك، لستَ بمجنون، كما يقول الجهلة مِن قومك والمكذّبون بما جئتهم به إليه من الهدى والحق المبين، فنسبوك فيه إلى الجنون، بل لك الأجر العظيم والثواب الجزيل، لا ينقطع ولا يبيد وهو غير مقطوعٍ وغير محسوبٍ.

www.MinhajBooks.com

---

١. الحجر، ١٥: ٦

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1] أنَّ سعد ابن هِشام سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِ رسول الله ﷺ. فقالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإنّ خُلُقَ رسول الله ﷺ كان القرآن. ورواه مسلم مِنْ حديث قتادة بطوله، وأحمد عن طريق الحسن، وعبد الرّزّاق، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم.

وروى ابن جرير الطبري عن الحسن، عن سعد بن هشام: قال أتيتُ عائشة أمّ المؤمنين فقلتُ لها: أخبريني بخُلُقُ النّبيّ ﷺ فقالت: كان خُلُقُهُ القرآن، أَمَا تقرأ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

روى أبو داود، والنسائي، من حديث الحسن نحوه ثم قال: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦﴾[2] أي: فستعلم يا محمّد، وسيعلم مخالفوك ومكذّبوك مَنِ المَفْتون

---

١. القلم، ٦٨: ٤

٢. القلم، ٦٨: ٥، ٦

الضّال مِنْك ومنهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾[1] وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.[2]

وقال ابن القيّم: والمُقْسَمُ عليه بالقلم والكتابة تنزيه نبيّه ورسوله ﷺ عمّا يقول فيه أعداؤه، وأنت إذا طابَقْتَ بين هذا القسم والمقسم به (والمقسم عليه) وجدتَه دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها فإنّ ما سطر الكاتبُ بالقلم مِن أنواع العلوم الّتي يتلقّاها البشر بعضهم عن بعضٍ لا تصدر عن مجنون، ولا تصدر إلا عن عقلٍ وافرٍ، فكيف يصدر ما جاء به الرّسول ﷺ مِن هذا الكتاب الّذي هو في أعلى درجات العلوم، بل العلوم التي تضمنها ليس في قُوَى البشر الإتيان بها، ولا سيّما مِنْ أمّيٍّ لا يقرأ كتاباً ولا يخطّ بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليمًا من

www.MinhajBooks.com

---

١. القمر، ٥٤: ٢٦

٢. سباء، ٣٤: ٢٤

الاختلاف، بَرِيئًا مِنَ التناقض، يستحيلُ العقلاء كلهم لَوِ اجتمعوا في صعيدٍ واحدٍ أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقلِ رجلٍ واحدٍ منهم، فكيف يتأتّى ذلك مِن مجنونٍ لا عقل له يميّز به، وهل هذا إلا مِن أقبح البهتان وأظهر الإفك والهذيان، فتأمّلوا شهادة هذا المُقْسَم بِه للمُقْسَم عليه ودلالته عليه أتمّ دلالةٍ.

١٩. وكذلك أقسم الله تعالى في سورة الحاقَّةِ بقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.[1]

ورد في أوّل الآية ﴿فَلَآ﴾ لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم، ويقال "لا" زائدة للتأكيد ومعناه أُقْسِمُ، أو المعنى: فليس الأمر كما تقولونه مِنْ أنَّ محمّدًا ﷺ يقول

---

١. الحاقّة، ٦٩: ٣٨-٤٣

القرآن مِن نفسه وهو شاعرٌ أو كاهنٌ فأقسم الله تعالى عليه وقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾: أي لتلاوة نبيٍّ مُرسلٍ كريمٍ منّا إليكم، فأَقْسَمَ الله عليه لِتَنزِيهه وتكريمه: ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ قال مقاتل: أقسم بِمَا تُبْصِرُوْنَ من الخلق وما لا تبصرون منه، وقال قتادة: أقسم بالأشياءِ كلها بما يُبْصَرمنها ومَالا يُبْصَر.

وقال الكلبي: تُبْصِرُوْن مِن شيءٍ وما لا تبصرون مِن شيءٍ. وهذا أعمُّ قسم وقع في القرآن، فإنّه يعم العلويّات والسُّفليات والدنيا والآخرة، وما يُرى وما لايُرى، ما يدركه البصر والبصيرة مِنَ المظاهر والمعالي من أفعاله تعالى وصفاته وما لا يدركه الأبصار والبصائر من مراتب الصِّفات والشُّيُونات، من الأجسام والأرواح، أو الإنس والجنّ والملائكة، والنعم الظاهرة والباطنة والعرش والكرسي والسماوات السبع وما فيها وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيّته فيدخل فيه جميع المكوّنات والموجودات وما في

www.MinhajBooks.com

ظهر الأرض وما في بطنها ومِن مكنونِ غيبه من الملكـــوت والجبروت والنّاسُوت، فالتحقيق أنّه تعالى أقسم بالكلّ حتّى بذاته المقدسّة، ما وقع به التجلّي وما لم يقع، وما ظهر منها في عالم الشهادة وما لم يظهر، وما يُعْلَمُ بعلم اليقين، ومـــا يشاهد بعينِ اليقين وما يُحَقَّقُ بحقِّ اليقين.

وكذلك أقسم الله تعالى بظاهرِ كلِّ حقيقةٍ وباطنها، ثم ذكر سبحانه المُقْسَمَ عليه وهو النّبيّ الرّســـول الوجيـــه الكريم العظيم ﷺ، وقـــال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ وهو محمد ﷺ ولا خلاف فيه وفي إضـــافته إلى الرِّســـالة دليلٌ واضحٌ أنّه كلام المُرْسِلِ ﷻ إلى رسوله الّذي يُبَلِّغُه إلى الناس عنه، وهو لا يقول عن نفسه، وأضافه إليه على معنى التبليغ لأنّ الرّسول مِنْ شأنه أن يبلّغ عن المُرْسِلِ.

فهو في غاية الكرم الّذي يدلّ على أفضليّته وعدم مثليّته بشاعرٍ وكاهنٍ، فإضافة القرآن إلى الله تعالى لأنّه هو وحيه والمتكلّم به، وإضافته إلى الرّسول ﷺ كما قال ﷻ:

www.MinhajBooks.com

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾ فمعناه هو الْمُبَلِّغُ إليه ونُزِّلَ على قلبه وأوحِيَ إليه من ربّه، ولهذا أكّده بقوله: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣﴾[1] وإضافته إلى جبريل كما ورد في سورة التكوير، بمعنى أنّه نزل به من السّماء وتلا على خاتم النبيّين ﷺ، ولكن أَظْهَرَهُ الله تعالى للخلق بلسان النبي ﷺ، ومن بلاغة هذه الآيات تكرار لفظ القول كما ورد: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ﴾، ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ﴾ للمبالغة في إبطال أقاويلهم الكاذبة على الرّسول الصّادق الأمين الحق المبين ﷺ. وزيادة ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١﴾، وقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢﴾ لتأكيد القلّة وأراد بالقليل نفي إيمانهم أصلاً، وقال الزمخشري: والقلّة في معنى العدم كقولك: ''لمن لا يزورك فما تأتينا أصلاً'' فمعناه: ''من لا يصدّقك فليس بمؤمن أصلا'' فيؤيّده قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ

---

١. الحاقة، ٦٩: ٤٣

إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾[1] وإطلاق المصدر في قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾[2] هذا لإفادة المبالغة، فأمّا لفظ القول فيه حكمةٌ لطيفةٌ بأنّ الله تعالى أضافه إلى الرّسول بلفظ ''القول'' وأضافه إلى نفسه بلفظ ''الكلام''، كما في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[3] لأنّ الرّسول يقول عن المُرسِلِ وهو الله ﷻ، كما قال المسيح: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾[4] وأمر الله النّبي ﷺ بقوله ﷻ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾[5] وبقوله ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾.[6]

---

١. الأنعام، ٦: ٩١
٢ الواقعة، ٥٦: ٨٠
٣. التوبة، ٩: ٦
٤. المائدة، ٥: ١١٧
٥. الإخلاص، ١١٢: ١
٦. الزمر، ٣٩: ٥٣

www.MinhajBooks.com

وبقوله ﷻ: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾،[2] ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾[3] فإذا بلَّغَ الرّسولُ عنه صَحَّ أن يُقال: ''قال الرّسول كذا'' أي قاله مُبَلِّغاً عن مُرْسِلِه'' و صَحَّ أن يقال ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝﴾ ولا يجوز أن يقال ''بكلام رسولٍ كريم'' لأنّ الله تعالى لا يتكلّم مع عباده بلا واسطة ولا يخاطبهم مباشرةً بل يخاطِبُ نَبِيَه أو رسوله ثمّ يقوم الرّسول أو النّبيّ بالخطاب والكلام نيابةً عنه ولذلك يُفْهَمُ قولُ الرّسول ﷺ قوله تعالى ومخاطبته ﷺ مخاطبة الله تعالى. وهذا ما أشار إليه ربّنا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ

www.MinhajBooks.com

---

١. إبراهيم، ١٤: ٣١
٢. الإسراء، ١٧: ٥٣
٣. النور، ٢٤: ٣٠

حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.[1] يؤيّد هذا الأمر قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾.[2] ولذلک يعتبر قول الرّسول ﷺ قوله تعالى، وأمر الرّسول ﷺ أمره تعالى، ونهيُ الرّسول ﷺ نهيه تعالى، وبيان الرّسول ﷺ بيانه تعالى، وإخبار الرّسول ﷺ إخباره تعالى، وإطاعة الرّسول ﷺ إطاعته تعالى، ومعصية الرّسول ﷺ معصيته تعالى، ومحبة الرّسول ﷺ محبته تعالى، وقربة الرّسول ﷺ قربته تعالى، وتعظيم الرّسول ﷺ عبادته تعالى، وتوقير الرّسول ﷺ تقواه تعالى، وتنقيص الرّسول ﷺ إهانته تعالى، وذكر الرّسول ﷺ ذكره تعالى، والصّلاة على الرّسول ﷺ دعاؤه تعالى، ومدح الرّسول ﷺ حمده تعالى.

ولذلک ذكر الله سبحانه بلفظ: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وَ ﴿خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، فَكُلُّ آيةٍ فِي ذكر الْمُقْسَم بِهِ وَالْمُقْسَم عليه

www.MinhajBooks.com

---

١. الشوري، ٤٢: ٥١

٢. النساء، ٤: ١٦٤

على انفرادها مُصَدِّقه للنّبي ﷺ وَمُعَظِّمةٌ لَه وَمُكَرِّمَةٌ لـــه وَمُشَرِّفَةٌ له ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فـــوق تصديقٍ، وتعظيم فوق تعظيم.

فتأمّلوا في نهاية التّصديق والتّعظيم للنّبي ﷺ بعد الأقسام المذكورة المتقدّمة، إذ قال الله تعالى في شأنه ﷺ في آخر السّورة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾[1] ذكر الله تعالى في كتابه المجيد مراتب اليقين وهي ثلاثة: فأوّل المراتب هو علم اليقين، وفوقه المرتبة الوسطى عين اليقين، وفوقهما المرتبة العظمى وهي المنتهى يقال لها: حقّ اليقين، وليست مرتبة بعدها، ذكر الله المرتبتين لليقين في سورة التّكاثر كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾[2] فيحصل علم اليقين بالسّمع وعين اليقين بالبصر، فالعلم بالمُعَاينة والمشاهدة

www.MinhajBooks.com

---

١. الحاقة، ٦٩: ٥١

٢. التكاثر، ١٠٢: ٥-٧

أرفع وأثبت مِن العلم بالسّماع والخبر، كما جاء في المسند للإمام أحمد مرفوعًا: «ليس الخبر كالمعاينة» ورواه أيضاً ابن حبّان والبزّار والحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ورجاله ثقاتٌ. ولكنّ حقّ اليقين، هو علمٌ بالمباشرة وهي فوق المعاينة والمشاهدة، وهو حقّ الحق بالجزم والقطع ويزول بها كُلُّ إمكان خطأ وريبٍ فَخَصَّص الله تعالى هذه المرتبة للنبيّ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم والوحي الّذي نُزِّل عليه في هذه السورة بقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١﴾.[1]

فجعل الله تعالى نُبوَّتهُ صلى الله عليه وآله وسلم، وإخباره، وتبشيرهُ، وإنذارهُ حقّ اليقين، وهذا آخر مراتب اليقين، الّذي شرّف به النّبيّ الأمين المكين صلى الله عليه وآله وسلم.

www.MinhajBooks.com

---

١. الحاقة، ٦٩: ٤٩-٥١

فختم الله تعالى السُّورة بالخطاب إلى النّبيّ ﷺ مخاطبة ﷺ وقال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾[1] فجعل الله تعالى نَبيّه ﷺ مخاطباً في هذه الآية وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وهذا كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾[2] وقال الخازن: أي نزّه ربك العظيم واشكره على أن جعلك حقّ اليقين.

٢٣/٢٠. وكذلك أقسم الله تعالى لحبيبه ﷺ بالشَّفَقِ وَاللَّيلِ والْقَمَرِ في سورةِ الانشقاق وجَعَلهُ ﷺ مُقْسمًا عليه في جميع الأقسام، بقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾.[3]

www.MinhajBooks.com

---

١. الحاقة، ٦٩: ٥٢

٢. الكوثر، ١٠٨: ١-٢

٣. الانشقاق، ٨٤: ١٦-١٩

فمعنى الأقسام: أي أقسم بالشّفقِ وهي الحمرة الّتي تشاهد في أفق المغرب بعد سقوط الشّمس أو البياض الّذي يعقبها.

فأمّا الشَّفَقُ الأبيضُ بعد الحمرة فرُوي هذا المعنى عن ابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة، وعمر بن عبد العزيز، والأوزاعي، والإمام أبي حنيفة رضي الله عنهم. وقال الراغب: الشَّفق هو اختلاط ضوء النّهار بسواد اللّيل، قال الزَمخشري والقرطبي سمّي شفقًا لرقّته ومنه الشَّفقة على الإنسان ورقّة القلب عليه، قال الرّاغب: الإشفاق عناية لأن المشفق يحب المشفق عليه وأصل الكلمة من رِقّة الشيء، يقال شيء شفق، وأشفق عليه أي: رقّ قلبه عليه، والشفقة: الاسم مِنَ الإشفاق وهو رقّة القلب وكذالک الشفق، فكأن تلک الرّقّة مِنْ ضوء الشّمس.

www.MinhajBooks.com

فلا إشكال أن تفهم منها إشارة إلى رقّة قلب محمّدٍ ﷺ لأمته ورحمته ورأفته عليها كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ

جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾﴾.[1]

وفي الصّحاح، الشّفق بقية ضوء الشّمس، وقال القرطبي مثله وقال أبو محمد البقلي الشيرازي: أقسم الله سبحانه بما بقي مِن عكس أنوار شمس جماله تعالى على أفق قلوب المحبّين والعارفين، فأقول: إنّ النّبي ﷺ هو إمام المحبّين والعارفين، وقلبه ﷺ أعلى وأقرب، وأحقّ من العرش لنـــزول أنوار شمس الألوهية، وأنوار الرّحمة والرأفة الإلهيّة، الّتي جعلت قلبه مصدر الشَّفَقَةِ، والرّحمة للمؤمنين وللعالمين بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.[2]

ثم أقسم بقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ قال الرّاغب وغيره من أئمّة اللغة: الوسق جمع المتفرق أي جمع وضمّ

---

١. التوبة، ٩: ١٢٨

٢. الأنبياء، ٢١: ١٠٧

ولفّ فالمراد: أقسم بالليل وبما جمع وضمّ كما ذكره القشيري. وأخرج الطبري عن عكرمة معنى ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ أي ما من شيء إلا وهو يذهب إلى حيث يأوي فمعناه: ما يجتمع بالليل ويأوي إلى مكانه من الدواب والحشرات والهوام والسباع لأنّه أَقْبَلَ كل شيء بالليل إلى مأواه مما كان منتشرًا بالنهار، ولذلك قيل: يجوز أن يكون المراد بما جمعه اللّيل: العباد المجتهدين الصّالحين باللّيل لأنه تعالى قد مدح المستغفرين بالأسحار، ويؤيّد هذا المعنى قول ابن جبير. ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ أي: وما عمل فيه من التهجّد والاستغفار بالأسحار، أخرجه الإمام البغوي والقرطبي وغيرهما وقال عكرمة رضي الله عنه أيضًا ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ إذا كان اللّيل ذهب كل شيء إلى مأواه، ذكره ابن كثير والقرطبي والرازي وغيرهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والحسن وقتادة أيضًا: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ أي: وما جمع، ونقل البغوي عن سعيد ابن جبير: ما عمل فيه. وقال الخازن:

www.MinhajBooks.com

ويحتمل أن يكون ذالک تهجّد العباد، فيجوز أن يقسم به، فأقول فمن كان أكمل تهجّدًا وأحسن عبادةً وأجمل عملا باللّيل من رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾.[1] لأنّ الله تعالى مكّنه على المقام المحمود أجرًا وثوابًا لتهجّده باللّيل كما أمره ﷺ في القرآن.

وقوله: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾ أي تمّ واجتمع، واستوى، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومسروق وأبو صالح والضّحّاک وابن زيد، وقال الحسن: إذا اجتمع إذا امتلأ ومعنى كلامهم: إنّه إذا تكامل نوره وأدبر، فجعل مقابلا ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ وقال البعض: جمع الله تعالى فيها أحوالا متقابلا وصحّ عن مجاهدٍ أنّه قال في هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾ هو النّهار كله وفي رواية عنه أيضًا: أنّه قال: الشَّفَقُ: الشمس، رواهما

www.MinhajBooks.com

---

١. بني إسرائيل، ١٧: ٧٩

ابن أبي حاتم وابن جرير، وإنما حمله، على هذا قرنه بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ أي جمع كأنّه أقسم بالضّياء والظّلام، وقال ابن جرير: أقسم الله بالنّهار مدبرًا وبالليل مقبلا وهكذا بالقمر إذا استوي وتكامل وامتلأ، ذكره ابن كثير، وقال القشيريّ: الشَّفق حين غَرَبَتْ شمس وصالهم وأُذِيقوا الفراق في بعض أحوالهم وذلك زمانُ قبضٍ بعد بسطٍ وأوانُ فرقٍ عُقَيب جمعٍ ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ ليالي غيبتهم وهم بوصف الاستياق (مِنْ ساق) أو ليالي وصالهم في روح التلاقي أو ليالي طلبهم وهم بنعت القلب والاحتراق ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾ إذا أظهر سلطان العرفان على القلوب فلا بخس ولا نقصان، وقال القرطبيّ: ''وأصله من سورة السّلطان، وغضبه فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرّحمة ما تمالك العباد لجيئه. ولكن خرج من باب الرحمة فمزج بها فسكن الخلق إليه ثم أبذعرّوا والتفُّوا وانقبضوا ورجع كلٌ إلى مأواه، فسكن فيه من هو له.''

www.MinhajBooks.com

ففي هذه الآيات أقسم الله تعالى بتغيّر أحوال اللّيل والنّهار وبتغيّر أحوال الشّمس والقمر، وذكر بعدها جواب القسم: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ وقرأ عمر، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس ومجاهد، وأبو العالية، وأبو عمر، ومسروق وسعيد بن جبير، وأبو وائل والشعبي، وطلحة، وعيسى، والأسود، والنخعي، والأخوان: حمزة، والكسائي، وابن كثير، ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفتح الباء على الخطاب للواحد، وقال الحافظ ابن كثير إضافةً: هذا قراءة عامة أهل مكة والكوفة أيضًا بفتح التاء والباء. أي ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ يا محمّد، سماءً بعد سماءٍ يعني ليلة الإسراء، رواه ابن أبي حاتم عن الشعبي، هكذا رُوِيَ عن ابن مسعود، ومسروق وأبي العالية: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ أي سماءً بعد سماءٍ قال الحافظ ابن كثير: قلت: يعنون ليلة الإسراء.

www.MinhajBooks.com

روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ حالا بعد

حالٍ قال: هذا نبيّكم وهو محتمل أن يكون ابن عباس رضي الله عنهما أسند هذا التفسير عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كأنه قال: سمعت هذا من نبيّكم صلى الله عليه وآله وسلم، فيكون قوله: ''نبيّكم'' مرفوعًا على الفاعلية من ''قال'' وهو الأظهر والله أعلم هكذا قال ابن كثير وذكره الخازن ولفظه: هذا لِنَبِيّكم وروى ابن جرير الطبري عن مجاهد، أنّ ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ يعني نبيّكم، يقول حالا بعد حالٍ.

وروى أبو داود الطيالسي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ قال: محمد صلى الله عليه وآله وسلم وروى البزّار عن ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾: يا محمّد! لتركبنَّ حالا بعد حال، وقال ابن جرير: لتركبنّ أنت يا محمد، حالًا بعد حالٍ وأمرًا بعد أمر وقيل: دَرَجَةً بعد دَرَجَةٍ ورُتْبَةً بعد رُتْبَةٍ في القرب مِنَ الله تعالى، وقال الخازن: قد فعل الله ذلك معه ليلة أسرى به،

www.MinhajBooks.com

فأصعدَه سماءً بعد سماءٍ وقيل درجةً بعد درجةٍ ورتبة بعد رتبةٍ في القرب من الله تعالى، فأقول فأيّده قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[1] وفُسِّرت هذه الآية بحديث أنس بن مالكٍ الذي رواه البخاري في صحيحه: «ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب أو قوسين أو أدنى» وقيل: معنى هذا يكون لك الظفر والغلبة على المشركين حتى يختم لك بجميل العاقبة فلا يحزنك تكذيبهم وتماديهم في كفرهم ذكره الخازن. هكذا كان تغيّر الأحوال وتقلّب الدرجات ارتقاءً للنّبي ﷺ رتبةً بعد رُتْبةٍ وحالةً بعد حالةٍ في حياته وجهاداته وشدائد حالاته وفتوحاته كغزوة بدرٍ وأحدٍ والأحزاب والمراجعة من الحديبية، وفتح خيبر ومكة، وحنين وغيرها إلى أن حصل له الغلبة والتّمكّن على جميع قبائل اليهود والمشركين، وقبائل العرب وبلادها وخارج العرب من

---

١. النجم، ٥٣: ٨-٩

www.MinhajBooks.com

قريب وبعيد حتّى تنوّرت شمسه وانتشرت ضياؤها واستوى بدره وتكامل وامتلأ وأضاء به البلاد كلها وهكذا كمَّلَ الله له معنى قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.[1]

والمعنى الآخر: أي لتركبنَّ أحوال أيّامك يا حبيبي، حالا بعد حالٍ فهذه حال البعثة، ثم حال الدعوة ثم حال الشّدائد، ثم حال الهجرة، ثم حال المخالفة، ثم حال الجهاد، وفتح البلاد، ثم حال دخول مكة فاتحًا وتوديع العباد، ثم حال الرحيل إلى دار المعاد، ثم حال الشفاعة والكرامة يوم القيامة ثم البعث على المقام المحمود، ثم حال المقام في دار الخلود والقيام، فالطَّبَق في اللغة يطلق على الحال، ويطلق أيضًا الطَّبَقُ على الجيل من الناس يكون طباق الأرض وهو التنقّل من صلب إلى صلب، أي: ملأها ومنه قول سيّدنا العباس بن عبد المطلب في النّبيّ ﷺ:

---

١. التوبة، ٩: ٣٣

تنقل من صالبٍ إلى رحمٍ

إذا مَضَى عالم بدَا طَبَق

وهذه إشارة في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾.[1]

وقال ابن القيم: من قال الخطاب للنّبي ﷺ فله ثلاث معانٍ:

الأوّل: لتركبنّ سماءً بعد سماءٍ حتّى تنتهي إلى حيث يُصْعِدُك الله.

والثّاني: لتَصْعَدَنَّ درجةً بعد درجةٍ، ومنزلةً بعد منزلةٍ ورتبةً بعد رتبةٍ. حتّى تنتهي إلى محل القُرْب والزُّلفي مِن الله.

والثّالث: لتركبَنَّ حالاً بعد حالٍ من الأحوال المختلفة الّتي نقل الله فيها رسوله ﷺ من الهجرة، والجهاد،

---

١. الشعراء، ٢٦: ٢١٩

ونصره على عدوّه، ومكر العدوّ به تارةً، وردّه إيّاه تـــارةً، وغناه وفقره، وغير ذلک من حالاته الّتي تنَقّلَ فيهـــا إلى أن بلغ ما بلغه إيّاهُ.

٢٧/٢٤. وكذلک أقسم الله تعالى في سورة البروج بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾.[١]

وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١﴾ هذا قسم أقسم الله تعالى بالسّماء ووصفها بذات البروج، وفيها أقـــوال: أحدها: ذات النّجوم، والثّاني: الخلق الحسن، والثالث: ذات المنازل، وهي القصـــور. قـــال ابـــن عبـــاس وعكرمـــة والضحّاک، والحسن، وقتادة، والسّدي، ويحيى بن رافـــع، والمنهال بن عمرو، ومجاهد: "البروج: قصور في السّماء" رواه الطبري، والقرطبي، وابن كثير. وقال مجاهـــد: هـــي

---

١. البروج، ٨٥: ١-٣

البروج الاثنا عشر، وهو قول أبي عبيدة ويحيى بن سلام، كما ذكره الماورديّ والقرطبي في تفسيرهما.

وقال القشيريّ: أراد البروج الاثني عشر المعروفة وهي القصور في السّماء، وذلك في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.[1]

واختار ابن جرير: أنّها منازل الشمس والقمر وهي اثنا عشر برجًا، كما ذكر الحافظ ابن كثير، وقال البيضاوي: البروج الاثنا عشر، شُبّهت بالقصور، لأنها تنزلها السيّارات، كما أنّ القصور ينزلها الأكابر والأشراف، سمّيت تلك الطرق بروجًا لظهورها لأن أصل معنى البرج: الأمر الظاهر ومنه البرج، ويقال: تبرّجتِ المرأة أي: تشبّهت بالبرج في إظهار المحاسن، فإذا نرى في معنى السَّماء وهو العُلُوُّ، وفي معنى البُروج وهو الظهور، وفي

---

١. الفرقان، ٢٥: ٦١

عددها وهو اثنا عشر، فلا بأس أن تُستفاد مِنْ جمعهـــا، أن يجوز احتمال الإشارة فيها إلى ولادة سيّدنا محمد ﷺ بمكّة وظهوره ﷺ وهجرته ﷺ وقدومه ﷺ بالمدينة ووفاتـــه ﷺ ووصاله ﷺ ولقائه ﷺ مع الرّفيق الأعلى، فكلُّ أمرٍ منها له مكانةٌ وعُلُوٌّ وظهورٌ، ووقع كلُّ أحدٍ مِـــنْ هـــذهِ الأمور في اثني عشر مِنْ شهر الرّبيع الأوّل، فهـــذه نســـبة لطيفة خفيّة لأهل الذوق والوجدان لو يعرفون.

وقال أبو محمّد البقلي الشـــيرازي: السّـــماء ذات البروج سماء قلوب العارفين، ذات الأبـــراج مـــن العلـــوم والحِكَم والحقائق تسرى فيها كواكب العقـــول ونجـــوم الأرواح، وقال الشّيخ الأكبر محي الـــدين ابـــن العـــربي: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١﴾ أي الـــرّوح الإنســـاني ذات المقامات في الترقي والدرجات، فأقول فأيّ قلب أعلـــى في السموّ والعلوّ، ذي الأبراج مِنَ المعالم والمعارف والحِكَم من قلبه الشريف لأنَّ الله تعالى جعل قلبه أولى مِنَ العرش ومـــا

www.MinhajBooks.com

فوقه لمعرفته ونزول حكمته عليه وجعل رُوحَهُ ﷺ أقرب إليه لِسرِّه وظهورِ حقيقته عليه وجعل وجوده ﷺ أكمل وجود لَمَظْهَرِيّته في الذّات والصّفات، وجعل ظهوره ﷺ أحسن ظهورٍ لِجَمَاله وكماله في الموجودات والكائنات.

ثم أقسم بقوله: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾ بيوم القيامة وهو يوم الفصل والجزاء الذي وعد الله به على ألسنة جميع الرّسل والأنبياء، قد روي عن أبي هريرة وأبي مالك الأشعري رضي الله عنهما وغيرهما: اليوم الموعود يوم القيامة وكذلك قال الحسن وقتادة وابن زيد وغيرهم ولا خلاف فيه. ثم أقسم الله تعالى في قوله: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾ وفيه أقوال، أرجحها وأثبتها: أن الشاهد محمد ﷺ والمشهود يوم القيامة.

www.MinhajBooks.com

روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: الشاهد هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمشهود يوم القيامة ثم قَرَأَ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣﴾.[1]

وروى الطبري سأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما عن ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣﴾ قال: سألتَ أحدًا قبلي؟ قال: نعم، سألتُ ابن عمر وابن الزبير، فقالا: يوم الذّبح ويوم الجمعة، فقال: لا، ولكنّ الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم قَرَأَ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾[2] والمشهود يوم القيامة، ثم قَرَأَ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣﴾ هكذا قال الحسن البصري وسعيد بن المسيّب، وسفيان الثوري، ومجاهد، وعكرمة والضحّاك، ورُوي هذا عن الحسين بن علي رضي الله عنهما أيضًا قرأ الإمام الحسين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ

www.MinhajBooks.com

---

١. هود، ١١: ١٠٣

٢. النساء، ٤: ٤١

شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الشاهد محمّدٌ ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾[3] وقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[4] أخرجه الطبري في تفسيره والبزّار في المسند والهيثمي في "المجمع" وقال: رجاله ثقات.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: المشهود يوم الجمعة، وعن عكرمة أيضًا: الشاهد محمد ﷺ والمشهود يوم الجمعة، روى ابن ماجه بإسنادٍ صحيح عن أبي الدرداء مرفوعًا عن النّبي ﷺ قال: «أكثروا الصّلاة عليّ يوم الجمعة فإنّه مشهود، تشهده الملائكة، وإنّ أحدًا لن يصلي عليّ إلا عُرِضَتْ عليّ صلاته حتى يفرغ منها» قال: قلت:

---

١. الاحزاب، ٣٣: ٤٥
٢. الأحزاب، ٣٣: ٤٥
٣. البقرة، ٢: ١٤٣
٤. النساء، ٤: ٤١

www.MinhajBooks.com

وبعد الموت؟ قال ﷺ: «وبعد الموت، إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فنبيّ الله حيٌّ يُرزَقُ» وأخرجه الطَبَري أيضًا، ونقله الحافظ ابن كثير، والقرطبي، والرازي وغيرهم وروى أبو داود، والنسائي، وابن ماجه في سُننهم عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مِنْ أفضل أيّامكم يوم الجمعة، فيه خُلِقَ آدم، وفيه قُبِضَ، وفيه النَّفْخَةُ وفيه الصَّعقة، فأكثروا عليّ مِنَ الصّلاة فيه، فإنّ صلاتكم معروضةٌ عليّ» وقال: قالوا: يا رسول الله! وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرِمْتَ — يقولون: بليتَ؟ فقال ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ حرّم على الأرض أجساد الأنبياء». واستدل مِن الحديث بأنّ المشهود يوم الجمعة والشاهد سيّدنا محمّدٌ النّبيّ المصطفى ﷺ لأنّهُ تُعْرَض أعمالنا وصلواتنا عليه كل يوم الجمعة وهو

www.MinhajBooks.com

يشهدها، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾.[1]

وذكر البغوي: وقيل الشاهد: الأنبياء والمشهود: محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكۡمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾[2] لأنّ الأنبياء قبله ﷺ شهدوا له بالنّبوّة، نقله الخازن والمظهري وغيرهم. وذكر الخازن: وقيل الشاهد: هذه الأمّة ونبيّها ﷺ والمشهود سائر الأمم المتقدّمة، بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا

www.MinhajBooks.com

---

١. البقرة، ٢: ١٤٣

٢. آل عمران، ٣: ٨١

لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾.[1]

وروى البغوي معنى آخر: أنّ الشاهد: محمّد ﷺ، والمشهود: الله ﷻ ويقال: الشاهد: محمّدٌ ﷺ، والمشهود: هذه الأمّة، لأنه ﷺ يشهد لهم وعليهم وقيل الشاهد: أمّة محمد والمشهود: سائر الأمم هكذا، ذكرها القشيريّ، فتبيّن لنا بهذه الآيات والأحاديث والآثار والأقوال كلها بأن الله تعالى أقسم بشاهديّة محمّدٍ ﷺ وبمشهوديّته ﷺ وشَرَّفه ﷺ بشؤون عجيبة عظيمة شاملة فحصل لنا خلاصة الأقوال بأنّه ﷺ هو الشاهد والمشهود والناظر، والمنظور، والطالب، والمطلوب، والمحبّ، والمحبوب، والقاصد، والمقصود، وهناك أمر آخر وهو: الشاهد من الشّهود إما بالبصر أو بالبصيرة فمعنى الشهود، الحضور بالمشاهدة والشاهد هو الحاضر، فحكم الحضور بمعنى الشهود،

www.MinhajBooks.com

---

١. البقرة، ٢: ١٤٣

فلذلک قال الملا علي القاري في ''شرح الشفا'': ''وفيه تَنْبِيْه نَبيه بأنّه ﷺ حاضر ناظر في ذلک العرض الأكبر لأنه سيكون فيه شاهدًا ويوم العرض الأكبر سيكون مشهودًا، وكذلک هو شاهدٌ علينا في الحياة الدنيا لأنه تعرض عليه أعمالنا وأحوالنا صباحًا ومساءً. فأمّا الحقيقة المحمدية ﷺ وروحانيته ﷺ وأنوار نبوّته ﷺ وفيوضات رحمته ﷺ وبركات شاهديّته ﷺ لا يخلو منها زمانٌ ولا إمكان، ولا محل ولا مكان، ولا عرش ولا كرسيّ، ولا لوح ولا قلم، ولا بر ولا بحر، ولا سهل ولا وعر، ولا برزخ ولا قبر، فامتلأ الكون الأعلى بها كامتلاء الكون الأسفل بها، فتجده ﷺ مقيمًا في قبره ﷺ بالجسد، وقائمًا بين يدي ربّه لأداء الخدمة وتام الانبساط بإقامته في درجة الوسيلة وترى الرائين له يقظةً ومنامًا في أقصى المغرب إلى أقصى المشرق وشأنه ﷺ كما قال القائل: ''ليس على الله بمستنكر، أن يجمع العالم في واحدٍ.'' وهذا كما ذكر الحلبي صاحب

السيرة في رسالته: فجمع الله تعالى فيه ﷺ العالمين كلّها لأنه تعالى جعله ﷺ رحمةً للعالمين وللعالمين نذيرًا وسراجًا منيرًا. فَأَمَّا شاهديّة النّبي ﷺ لها شأنان: الشاهديّة بالبصر والشاهديّة بالبصيرة. وهذا معلوم محقّق عند أهل العلم أنه ﷺ كان يرى من خلفه كما كان يرى أمامه، فكان يرى خشوع الصحابة كما كان يرى ركوعهم، وكان يرى في الظّلمة كما كان يرى في الضّياء، وكان يرى في اللّيل كما كان يرى في النّهار، وكان يرى من بعيدٍ كما كان يرى من قريبٍ، وكان يرى الحبشة مِنَ المدينة كما كان يرى الثريا بمكة في مهده ﷺ، وكان يرى الحوض والمحشر والجنّة والنّار كما كان يرى المشارق والمغارب وأسفار الصحابة في البحار، ولذلك أمر النّبي ﷺ أصحابه: «إني أرى من خلفي كما أرى من بين يدي، فأقيموا صفوفكم وأحسنوا ركوعكم وسجودكم». لأنّ روحه ﷺ أقوى الأرواح فإنّها لم يحجب عنها شيء من العالم فهي مطلعة

www.MinhajBooks.com

على عرشه تعالى وعلوه وسفله ودنياه وآخرته لأن جميع ذلک خُلِقَ لأجله فإنه جُعِلَ شاهدًا على كل شيءٍ وجُعِلَ لهُ كلُّ شيء مشهودًا.

٢٩/٢٨. وكذلک أقسم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾[1] قال الرّاغب: عبّر عن النّجم بالطّارق لاختصاص ظهوره باللّيل، فالطارق في الأصل اسم فاعل من طرق طرقًا وطروقًا ويقال لكل من أتاک ليلا فهو طارق وفي الصّحاح: الطّارق النّجم الّذي يقال له كوكب الصّبح. قال القشيري: أقسم بالسّماء وبالنّجم الّذي يطرق ليلاً ثم بيّن الله تعالى بعد القسم ما هو الطارق تفخيمًا لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾ هذا الاستفهام يراد منه التفخيم بعد التعظيم لهذا النّجم، فقيل: هو النّجم الثّاقب. قال أبو السّعود: وهذا تنويه بشأنه

---

١. الطارق، ٨٦: ١-٣

وتفخيمه بالإقسام به وتنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك الخلق فلا بدّ من تلقيها من الخلاق العليم لهذا النّجم العظيم. ويقال: ثَقُبَ يثقُبُ ثقوبًا وثقابة: إذا أضاء، وثقوبه: ضوؤه، فمعناه: ''الكوكب المضيء'' فقد قال الله سبحانه: ''أي لا أقسم بكل طارق من الكواكب بل أقسم بطارق معيّن وهو النّجم الثّاقب الذي يثقب الظلام ويهدى به كلّ مسافر في ظلمات البرّ والبحر'' ولذلك قال القشيري: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ هو ''النّجم المضيء العالي'' وهو نجم المعرفة الّذي يدلّ على التّوحيد ويستضيء بنوره ويهتدي به أولو البصائر، وذكر القاضي عياض عن السُّلَميّ: قال: إنّ النّجم هنا محمد ﷺ، وقال سهلٌ: إنّ الطارق ما طَرَقَ على قلب محمد ﷺ من زوائد البيان والإنعام وفيه إشارة إلى علوّ منـــزلة النّبي ﷺ مع ضوء نبوّته ﷺ ونور رسالته ﷺ لأن المعنى الآخر للثاقب: العالى، يقال: ثَقُبَ الطّائِرُ إذا علا في الهواء، وأسف: إذا دنا

www.MinhajBooks.com

من الأرض فإنّ الثاقب تجتمع فيه خصلتان: كمال العلوّ وشدّة الإضاءة، ويقال من المجاز: كوكب ثاقب: ''درّي شديد الإضاءة والتلألؤ'' كأنّه يثقب بالظلمة فينفذ فيها ويدرؤها، ويقال: ثَقُبَتِ النّار ثُقُوْبًا: إذا اتّقدت واشتعلت، وَثَقُبَ النَّجْمُ ''إذَا أضاء ضياءً شديدا.'' ولا شكّ في الرّسالة المحمّدية ﷺ اجتمعت فيها خصلتان: كمال العلوّ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[1] وبقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[2] وبقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣﴾[3] وشدة الإضاءة كما سمّاه الله تعالى نورًا وسراجًا منيرًا بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾[4] وبقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا

---

١. البقرة، ٢: ٢٥٣

٢. القلم، ٦٨: ٤

٣. النساء، ٤: ١١٣

٤. المائدة، ٥: ١٥

www.MinhajBooks.com

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾[1] فإن النّجم المحمّدي ﷺ طلع في وقت ذهاب اللّيل وبدء الصّبح فجمع الله في مولده ﷺ شأنين لازمين فلذلک أقسم الله به ﷺ، وبالطّارق وعيّنه ﷺ بالنّجم الثاقب، فأقسم أوّلا بما يشترک فيه هو وغيره وهو الطّارق. ثم سأل عنه بالاستفهام تفخيمًا وتعظيمًا له ﷺ وعيّنه ﷺ وفسّره ﷺ بالنّجم الثّاقب لإزالة الإبهام من فهم العوام وجعل هذا الاختصاص إكمالاً وإتمامًا في الإنعام على خير الأنام ﷺ الذي أخرج الخلق إلى النّور من الظلام.

٣٣/٣٠. وكذلک أقسم الله تعالى به ﷺ بقوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾[2] قال ابن عطاء: إن الفجر محمّد ﷺ لأن منه ﷺ تفجّر الإيمان،

www.MinhajBooks.com

---

١. الأحزاب، ٣٣: ٤٥-٤٦

٢. الفجر، ٨٩: ١-٣

والفجر صبح النهار وأوّل وقت ظهور ضوء الشّمس وانقضاء اللّيل وهذا الوقت الّذي ينشقّ فيه النّور وينفتح للضياء والظهور وغابت ظُلَمُ اللّيالي وقال سهل التستري: ''﴿ٱلۡفَجۡرِ﴾ الّذي أقسم الله به هو محمد ﷺ منه تفجّرت الأنوار'' و ﴿لَيَالٍ عَشۡرٍ﴾ هو العشرة المبشّرة من أصحابه ﷺ الّذين حَكَمَ لهم بالجنّة و ﴿ٱلشَّفۡعِ﴾ إخلاصهم لله و ﴿ٱلۡوَتۡرِ﴾ طاعتهم لله. ويحتمل أن يكون المراد من الفجر، فجر الّيوم الّذي ولد فيه النّبي ﷺ أو فجر اللّيلة الّتي أسرى فيها بالنّبي ﷺ والشفع قلبه والوتر روحه لأنّ جميع لطائفه ﷺ حصلت لها الارتقاء والمعراج في تلكّ اللّيلة.

٣٤. وكذلك أقسم الله تعالى بقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾[1] أقسم الله تعالى ببلد ولادته ﷺ وسكنته ﷺ لأنّه شرّفه بمولده، ومكانه، وقيامه ﷺ.

www.MinhajBooks.com

---

١. البلد، ٩٠: ١-٢

فأما الوجه الأول في هذه الآية: أي أقسم ببلد الحرام، الّذي أنت فيه لِحُبّي لک ولكرامتک عليّ، وقيل معناه: ‘‘وأنت مقيمٌ’’ فيه وهو محلّک أي من أهل مكة نشأت بينهم وإنّهم يعرفون فضلک وطهارتک وقيل أنت فيه محسنٌ وأنا عنک فيه راضٍ ويجوز أن تكون ‘‘لا’’ زائدة كما قال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾[1] وقرأ الحسن، والأعمش وابن كثير ﴿لَأُقْسِمُ﴾ من غير ألف بعد اللام إثباتًا وتأكيدًا، وروى منصور عن مجاهد في ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾ قال: ماصنعت فيه شيئًا فأنت فيه حل. قال ابن زيد: ولم يكن بها أحد حلالا غير النبي ﷺ.

والوجه الثاني في هذه الآية: أن الجملة حالية و‘‘لا’’ نافية أي: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ وأنت حال مقيم بها لعظم قدرک أي: لا نقسم بشيء وأنت أحق بالإقسام بک من كل شيء ومكانٍ.

www.MinhajBooks.com

---

١. القيامة، ٧٥: ١

والوجه الثالث في هذه الآية: أن تكون ''لا'' بمعني ''ألاَّ'' هي استفهام الإنكار والإنكار نفيٌ وقد دخل على النفي، ونفي النفي إثبات فيكون تقديره ''لِمَا لا أقسم بهذا البلد وأنت حال مقيم فيه'' فهذا الاستفهام يدلّ على الإثبات والتحقّق وردّ إمكان النفي والإنكار.

والوجه الرابع في هذه الآية هي نفيٌ صحيحٌ والمعني: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه، حكاه الإمام المكيّ ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهدٍ وهذا اختيار ابن العربي أيضًا ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ يجوز أن يرد حِلٌّ بمعنى حال من الحلول وهو النزول، أي والحال أنت يا محمّد، حال في مكّة نازل بها، قيّد الله تعالى إقسامه بمكة بحلوله ﷺ فيها إظهارًا لمزيد فضلها فإنها بعد أن كانت شريفة بنفسها زاد شرفها بحلول النبي العظيم الشريف ﷺ فحصل للمكان شرفٌ مزيدٌ بشرف المكين وهو محل قَدَمَي النبي ﷺ وفي هذه الجملة تعريض لأهل

مكة بأنهم لِجهلهم يرون أن يخرجوا منها من بـــه مزيـــد شَرَفِها ويؤذوا من به مزِيدُ أَمْنِهَا.

٣٦/٣٥. وكذلك أقسم الله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾[١] وقيل: الوالد إبراهيم وإسماعيل ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ فهي إشارة إلى سيّدنا محمّدٍ ﷺ وفيها مناسبة معنوية تامّة يقتضي بها سياق السورة، وقال الماورديّ: يحتمل أن الوالد هو النبي ﷺ لتقدم ذكره ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أمته لقوله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم». أخرجه أبوداود في السنن، والنسائي، وابن ماجه.

٣٨/٣٧. وكذلك أقسم الله تعالى له ﷺ ليحقّق عُلُوَّ مكانته وعظمة خلته، ورفعة أحبيّته ﷺ عنده تعالى وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[٢] فأقسم الله تعالى لحبيبه ﷺ في ردّ المشركين أو في

---

١. البلد، ٩٠: ٣

٢. الضحى، ٩٣: ١-٣

ردّ امرأةٍ مشركةٍ (وهي أم جميل امرأة أبي لهبٍ) إذ تكلّمت عند فترة الوحي، وقالت: ‘‘ما أرى صاحبك إلا قد ودّعك وقلاك،’’ وهذا القسم كان من كرامة الله تعالى له ﷺ وتنويهه به ﷺ وتعظيمه إيّاه ﷺ وقال: أي وربّ الضُّحٰى وهذا من أعظم درجات المحبّة والمبرّة وبيان المكانة والحظوة لديه وأخبر بهذا القسم عن حاله بأن الله تعالى ما تركك منذ اختارك وما أبغضك منذ أحبك وما قطعك منذ وصلك، وقال الواسطيّ: ما أهملك بعد أن اصطفاك، وقال ابن عطاء: ما حجبك عن قربه حين بعثك إلى خلقه وقال الجنيد البغدادي: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ هو مقام الشهود، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ هو مقام الغين الذي قال النبي ﷺ فيه: «إنه ليغان على قلبي». رواه مسلم وأبوداود. وأقسم بالضُّحَى وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس واعتدال النهار في الحرّ والبرد وفي الصّيف والشّتاء فيحتمل أن تكون فيه إشارةٌ إلى ارتفاع شمس الرّسالة المحمّدية ﷺ

www.MinhajBooks.com

التي تنسخ وجودها ظلمة اللّيل وانبسط نورها وضوؤها على وجه الأرض وعلى مشارقها ومغاربها مع كونها معتدلة لا شدّة في حرّها ولا في بردها وهي صِفَة النّبوّة المحمّدية ﷺ وخُلُقِها وعن الإمام جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام أن المراد بالضّحى السّاعة الّتي كلّم الله فيها موسى عليه السلام وبالليل: ليلة المعراج، كما رواه القشيري.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ معناه إذا سكن واستقرّ، يقال في اللّغة: سجا البحر سجوا إذا سكنت أمواجه وليلة ساجية: أي ساكنة الريح وفي إسناد سكون الظلمة الكائنة مجاز علاقته الحلول والظرفية، فإنّ الزمان ظرف لما فيه فمعناه: إذا سكن أهله، فهو مجازٌ أيضًا من إسناد ما للشيء إلى زمانه، نحو نهاره صائمٌ وليله قائمٌ، إشارةٌ إلى سكون الناس فيه وطمأنينتهم واستقرارهم، فأقسم الله تعالى بليلة معراج النبي ﷺ إذا حصل له سكونٌ وطمأنينةٌ بلقائه وشرّفه الله تعالى بالاستقرار وعدم التغيّر في حاله إذا شاهده

www.MinhajBooks.com

ومكّنه على مقام ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ وفي قسم الضُّحَى إشارةٌ أخرى إلى النبوّة المحمّدية ﷺ لأن الضحى ساعةٌ من النهار واللّيل ساعاتٌ فذكر ساعةً بالضّحى وجميع ساعاتٍ بالليل ذلك إشارةٌ إلى أن ساعةً واحدةً من النّهار توازي جميع ساعات اللّيل بل غلبت كلّها. وكذلك أقسم الله تعالى بأنّ محمدًا ﷺ يوازي جميع الأنبياء والمرسلين، ونبوّته، تساوي جميع النبوات بل غلبت وتفوّقت وتفضّلت عليها مِنْ كُلِّ الوُجوه، ففيه إشارة إلى أن الله تعالى أقسم وقال: يا محمد، يا حبيبي، ما تركتُ أحدًا من الأنبياء والمرسلين إذ أرسلته إلى قومٍ أو قبيلةٍ أو موضعٍ فكيف نتركك ونقطعك وأرسلناك إلى كافةِ الناس بشيرًا ونذيرًا وجعلناك رحمةً للعالمين وأعطيناك النّبوّة والرّسالة الّتي هي شاملة وجامعة لجميع كمالاتهم وآياتهم وحسناتهم وكراماتهم وختمنا بك النبوّة والرّسالة وجعلنا بعثتك ضُحًى للعوالم والكائنات كلّها.

www.MinhajBooks.com

قال الفَرَّاء: ﴿ٱلضُّحَىٰ﴾ هو النّهار كلُّه، وقال المُبرّدُ: أصل الضُّحَى الصّبح وهو نورُ الشّمس وقال أبو الهيثم: الضُّحٰى نَقِيْضُ الظِّلّ وهُوَ نور الشّمس المنبسط على وجه الأرض الّذي يمحو ظلمة اللّيل. وقال أبو محمّد البقلي الشّيرازي: أقسم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ أي بطلوع شمس عرفانک يا محمد، في أيام الوصلةِ، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ وبليل الفُرقة إذا كنتَ في غلبة الحيرةِ حيث قُلتَ "لا أحصي ثناء عليک".

وقال ابن عطاء: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ أي أُقْسِمُ بمكاشفاتِ سِرِّک بنا ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي أقسم باشتغالک بالدَّعْوَةِ وأمور الرّسالة، لأنّ شمس المكاشفة بِجَمَالِ الله تعالى تطلع وتنشرح على مَطْلَعِ الْخَلْوَةِ مع الله الّتي كانت تحصل له ﷺ في غار حراء، الّتي أخبرت بها عائشة رضي الله عنها: ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاء وكان يخلو بغار حراءٍ فَيَتَحنَّثُ فيه، وهو تَعَبُّدُ اللَّيالي ذوات العدد، قبل أن يَنْزِعَ

إِلَى أَهْلِه وَيَتَزَوَّد لِذلک... حَتَّى جاءه الحَقُّ وَهو في غَـــارِ حراءٍ. رواه البخاري ومسلم.

فَتَبَين أنَّ في ﴿ٱلضُّحَىٰ﴾ إشارة إلى كَشْفِ الحجابِ والشُّهود الذّاتي وفي ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ إشارة إلى مقام الاجتهاد لِدَعْوَةِ الخَلق إلى الحقّ إذا كان النّبي ﷺ يَرْغب من الخلق إلى الحقِّ ويَتوجَّهُ ويَتَفَرَّغُ إلى الذّات، فاشْتَعَل الشِّهَاب، وارتفع الحِجَاب، وَاكْتَشَفَ ما كان في الغياب، فَتَمَّ ذوقه وكمل شوقه ﷺ هذا المقام كان يطلب محض الإعراض عن الخلق والانقطاع، وكمالَ التَّبَتُّل والتّجريد عما سوى الله الأحَدِ الْفَردِ الصَّمَدِ، وهذا هُوَ ﴿ٱلضُّحَىٰ﴾ وهُوَ كان عرُوجُه في السَّير إلى الله، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ هو كان نزوله في السَّير عن الله، والنّزول هو إكمال الْعُرُوْجِ وإتمامه، فجمع الله تعالى كُلَّ كمالٍ في نُبُوَّتِه ﷺ فأقسَم مَرَّةً بِجَمْعِه ومَرَّةً بتَفْرِقَتِه ﷺ وأقسم مَرَّةً بعُروجه وَمَرَّةً بنـــزوله ﷺ وَمَرَّةً بولايته ومرّةً برسالته ﷺ ومَرّةً

بإنقطاعه إلى حَضْرَةِ الْحَقِّ وَمَرَّةً باشتغَاله ﷺ إلى دَعْوةِ الْحَقِّ، فَشَرَّفَه وميّزه ﷺ بِجَمْعِ الْجَمْعِ بِشَأنٍ عظيمٍ حيث جَمْعُه ﷺ ما أَسْقَطَ تَفْرِقَته ﷺ وَتَفْرِقَتُهُ ﷺ مَا أَسْقَطَتْ جَمْعَهُ ﷺ وأعطاه ﷺ البَرَائَةَ مِنَ التَّلْوِيْنِ، وَمَكَّنَهُ ﷺ عَلَى عُلُوِّ صِحَّةِ التَّمْكِين وهذا كان تشريفه ﷺ بِغَايَةِ الكمال ونِهَايَةِ الاتصال وَلِذَلك قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝﴾[1] فجمع الله ﷻ له القَسَمَيْنِ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾ فَإِنّي أَبْرَأ إِلى الله مِنَ الخَطَلِ وَالْخَطَأ.

٤٢/٣٩. وكذلك أقسم الله تعالى بأربعة أشياء وأماكن، فإنّها: ''التّين، والزَّيتُون، وطُور سينين، والبلدِ الأمين'' وهُناك أقوالٌ وتعبيراتٌ في معنى هذهِ الأقسام: قَالَ الله ﷻ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ

---

١. الانشراح، ٩٤: ١-٢

﴿٣﴾:[1] القول الأوّل: أي أقسم الله تعالى بعصر آدم عليه السلام وهو العهد الّذي طفِق فيه آدم وزوجه يخصفان عليهما من ورق الجنّة، (أخرجه الديلميّ في ‘‘مسند الفردوس’’ وأبو نعيم في ‘‘الطبّ’’ وابن السّني وذكر ابن القيم في ‘‘الزاد’’ والسَّيوطي في ‘‘الطبّ النبوي’’) وروى أبو ذرّ رضي الله عنه، قال: أهدى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم سل تين. فقال: «كلوا» وأكل منه ثم قال: «لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه». ذكرهُ القرطبيّ والحافظ ابن حجر. روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾[2] قال: ينــــزعان ورق التّين فيجعلانه على سوآهما. ذكره الحافظ ابن كثير. وقال القرطبي: وقيل: جعلا يلصقان عليهما ورق التّين.

www.MinhajBooks.com

---

١. التين، ٩٥: ١-٣

٢. طه، ٢٠: ١٢١

والثّاني: أخرج الطبريّ وابن أبي حاتم: ﴿ٱلتِّينِ﴾ مسجدُ نُوحٍ عليه السلام الّذي بُنِيَ على الجوديّ، ذكره ابن كثير، والقرطبي وغيرهما.

والثّالث: قال عكرمة وابن زيد: ﴿ٱلتِّينِ﴾ مسجد دمشق، وقال قتادة: ﴿ٱلتِّينِ﴾: الجبل الّذي عليه دمشق، ذكرهُ القرطبي وابن كثير وغيرهما، ودمشق هو مُهَاجَر سيّدنا إبراهيم عليه السلام وهذا اختيار الطبري أيضًا.

الرّابع: قال محمد بن كعب: ﴿ٱلتِّينِ﴾ مسجد أصحاب الكهف، ذكره البغويّ والقرطبيّ وغيرهما.

الخامس: قال الضّحّاك: ﴿ٱلتِّينِ﴾ المسجد الحرام، ذكره القرطبيُّ وغيره والمسجد الحرام هو مقام سيّدنا محمدٍ النبيّ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الّذي بدأ به سفره الإسراء ليلة المعراج وهو مَولِدُه صلى الله عليه وآله وسلم أيضًا.

www.MinhajBooks.com

وفي قوله: ﴿وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ أقوالٌ. أوّلها: قال ابن عباس رضي الله عنهما، وكعب الأحبار، وقتادة، وابن زيد وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس وقال الضَّحَّاك: ﴿ٱلزَّيۡتُونِ﴾: المسجد الأقصى، ذكره الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والبغوي وغيرهم، وقال قتادة: ﴿ٱلزَّيۡتُونِ﴾، الجبلُ الّذي عليه بيتُ المقدس، وقال عكرمة وابن زيد: ﴿ٱلزَّيۡتُونِ﴾: بيتُ المقدس، وهذا اختيار الطبري وغيره، وقال المراغي: إنّ الله أقسم بالزَّيْتُون عَصْرَ نوح عليه السلام وذرّيته كما أقسم بالتّين عصر آدم عليه السلام. وفي قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ هو جَبَلُ سِينَاء الّذي نادى الله تعالى منه موسى عليه السلام، قال كعب الأحبار وعكرمة، وقتاده ومجاهد: هو الْجَبَلُ الحَسَنُ المباركُ، الّذي كلّم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام. (ذكره الطبري، والقرطبي، وابن كثير والسّيوطي وغيرهم).

وفي قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ يعني مَكّة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وعكرمة، والحسن البصري،

www.MinhajBooks.com

وإبراهيم النخعي، وابن زيد، وكعب الأحبارُ وغيرهم، ولا خلاف في ذلك، وأقسم بهذا البلد الأمين الذي شرّفه الله تعالى بميلاد رسوله وحبيبه محمدٍ ﷺ فيه كما قال ﷻ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾.[1]

الآن نذكر حكمة الأقسام بهذه الأماكن، فحِكْمَتُها: الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها مِن الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصَّالحين، فمنبت التِّيْن والزَّيْتُون: مَهَاجَرُ إبراهيم ومَولِدُ عيسى ومَنْشَؤُهُمَا عليهما السلام ومقر الأنبياء عليهم السلام. والطّور: المكان الّذي نودي فيه موسى عليه السلام، ومكة ﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ هو مولد رسول الله ﷺ ومَبعثه. فإنّ هذه الأقسام ولو اعتبرت بعُصُوْرِ الأنبياء الطَّيِّبةِ أو بأماكن مقدّسَةٍ أو بأشياءٍ مباركةٍ، ولكن لا خلاف فيه بأنّ حكمة كُلِّ قَسَمٍ تشتمل نِسْبَةً واحِدَةً مشتركةً في كلِّها وهي الإضافة بالأنبياء والصّالحين.

---

١. البلد، ٩٠: ١-٢

نقل ابن كثير عن بعض الأئمة، قال: هذه مَحَالٌّ ثلاثة، بعث الله في كُلِّ واحدٍ مِنْهَا نبيّا مرسَلاً مِن أولى العزم، أصحاب الشرائع الكبار، فالأوّل: محلّة التّين والزّيتون، وهي بيت المقدس الّتي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام، فأقسم الله تعالى بهذا المكان تعظيمًا له، والثّاني: طور سينين، وهو طور سيناء الّذي كلّم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام، فأقسم الله تعالى بهذا المكان تعظيمًا له، والثّالث: مكّة، هو البلد الأمين، وهو الّذي أرسل فيه محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم فأقسم الله تعالى بهذا المكان تعظيمًا له، وذكر في آخر التّوراة هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء يعني كلّم الله عليه موسى عليه السلام. وأشرق مِنْ سَاعيرَ يعني جبل بيت المقدس الّذي بعث الله منه عيسى عليه السلام، وَاسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَالِ فاران يعني جبال مكّة الّتي أرسل الله مِنْها محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم. فذكرهم مُخْبرًا عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ولهذا أقسم بالأشرف

www.MinhajBooks.com

والأكرم، ثم الأشرف والأكرم منه، ثم الأشرف والأكرم منهما وهو نبيُّ آخرِ الزّمان وخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

فجعل اللهُ نبوّة موسى عليه السلام بمنزلة مجيء الصّبح، ونبوّة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشّمس وإشراقها، ونبوّة محمّدٍ ﷺ بعدهما بمنزلة استعلائها وظهورها للعوالم والكائنات كُلّها.

وقال القرطبي: إنّه أراد بالتّين دمشق وهو أرض الشام، وبالزَّيتون بيت المقدس، فأقسم الله بِجَبَلِ دمشق لأنّه مأوى عيسى عليه السلام وبجبل بيت المقدس لأنّه مقام الأنبياء عليهم السلام وبمكة لأنّها أثر إبراهيم ودار محمدٍ ﷺ.

فأقول: يحتمل بأنّ الله تعالى أقسم بهذه الأماكن المقدّسَةِ لأنَّهَا مَنَازِلُ سَفَرِ الحبيب ﷺ ليلة الإسراء مِن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، لأنّ النّبيّ ﷺ بدء سَفَرَه مِنَ البلد الأمين وهو مكّة، فركب البراق وذهب إلى أرض المدينة لأنّه كان مهاجره ﷺ.

ثُمَّ ذهب إلى طُور سيناء حيث كلّم الله موسى عليه السلام ثُمَّ ذهب إلى مولد عيسى عليه السلام بِبَيْتِ المقدس، ثُمَّ أَمّ جميْعَ الأنبياء بالمسجد الأقصى. ثم صُعِدَ به إلى السّماء وما فوقها، فطريق سَفَرِه كان بأرضِ الشّام وهو مُهَاجَرُ إبراهيم عليه السلام وكُلُّه، يقال أرض التيّن والزَّيْتُون، كما روى النسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل، خَطْوُهَا عند مُنْتَهَى طَرَفِها، فَرَكِبْتُ ومعي جبريل عليه السلام، فَسِرْتُ. فقال: انزل فصلّ. ففعلتُ، فقال: أتدري أين صلّيتَ؟ صلّيتَ بطَيبَة وإليها المهاجر. ثم قال: انزل فصلّ. فصلّيتُ، فقال: أتدري أين صلّيتَ؟ صلّيتَ بطُور سيناء، حيثُ كلّم الله جل جلاله موسى عليه السلام. ثم قال: انزل فصلّ. فصلّيت، فقال: أتدري أين صلّيتَ؟ صلّيتَ بِبَيْتِ لَحْمٍ، حيث وُلِدَ عيسى عليه السلام. ثم دخلتُ بيتَ المَقْدِسِ فَجُمِعَ لي الأنبياء عليهم السلام

فَقَدَّمَنِي جبريلُ حتى أَمَمْتُهُمْ ثم صُعِدَ بِي إلى السّماء الدّنيا...» الحديث.

وروى البزار والطبراني عن شداد ابن أوس رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله! كيف أُسْرِيَ بك ليلة أسري بك؟ قال: «صلّيتُ لأصحابي صلاةَ العتمة بمكة معتمًا. فأتاني جبريل بدابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب، فَاسْتَصْعبت عليّ فأدارها بأذنها، حتى حملتني عليها، فانطلقت تهوي بنا تضع حافرها حيث أدرك طرفها، حتّى انتهينا إلى أرض ذات نخل. فقال: انزل. فنزلت، ثم قال: صلّ، فصلّيتُ، ثم ركبنا، فقال لي: أتدري أين صلّيتَ؟ قلت: الله أعلم، قال: صلّيتَ بيثرب، صلّيتَ بطيْبَةَ، ثم انطَلَقت تهوي بنا تضع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بَلَغْنَا أرضًا بيضاء. فقال لي: انزِل، فنزلتُ. ثم قال لي: صلّ. فصليت، ثم ركبنا، فقال: تدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بمدين، صليت عند شجرة موسى

www.MinhajBooks.com

عليه السلام. ثم انطلقت هوى بنا تضع حافرها — أو يقع حافرها — حيث أدرك طرفها، ثم ارتفعنا. فقال: انزل. فنزلت، فقال: صل، فصليت، ثم ركبنا، فقال لي: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت ببيت لحم حيث ولد المسيح عيسى ابن مريم. ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها الثامن فأتى قبلة المسجد...» الحديث.

وروي هذا الحديث مِنْ طريقَين، وهذا إسنادٌ صحيحٌ. ثم ساق أحاديث كثيرة في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث، وروى أيضًا هذا الحديث الإمام ابن أبي حاتم في تفسيره وذكره الحافظ ابن كثير وغيره.

فَتَبَيَنَ لَنا أنّ المنزلة الأولى في ليلة الإسراء كانت المدينة، هو مُهاجَرُ النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والمنزلة الثانية كانت الطّور وهو مكان موسى عليه السلام والمنزلة الثالثة كانت بَيت لَحْمٍ ببيت المَقْدِس وهو مكان عيسى عليه السلام والمسجد الأقصى وهو مقرّ الأنبياء ومجمعهم تلك اللّيلة وكان مبدأ

www.MinhajBooks.com

سَفَرِه ﷺ مكّة وهو البلد الأمين، وطريقه أرض الشام وهو مُهَاجَرُ إبراهيم عليه السلام ويقال له أرض التّين والزَّيتون، وهذه كانت منازل السَّفَرِ الأرضيّ في ليلةِ الإسراء كما قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[1].

ولذلك لَقِيَ رسولُ الله ﷺ هؤلاء الثلاثة مِنَ الأنبياء العظماء إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام في تلك اللّيلة ببيت المقدس، كما روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان ليلة أسرى برسول الله ﷺ لَقِيَ إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. أخرجه ابن ماجه بإسنادٍ صحيحٍ. وقال البوصيري: رجال هذا الحديث ثقاتٌ، وروى البيهقي عن سعيد بن المسيّب يقول: إنّ رسول الله ﷺ حين إنتهى إلى بيت المقدس، لقي فيه

---

١. الإسراء، ١٧: ١

إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، فجعل الله تعالى كُلَّ أَحَدٍ منهم مُقْسَمًا عليه حِيْنَ أَقْسَمَ بِأَمَاكنهم وبلادهم وجبالهم وجعل كُلَّ أَحَدٍ مِنَ الأَقْسَامِ لِلنَّبِيِّ الحبيب المصطفى ﷺ تعظيمًا وتكريمًا له وإظهارًا لقدره ﷺ ومنزلته ﷺ عنده ورفعته ﷺ وعَظَمته ﷺ لَدَيْهِ، حيث جعل جميع منازل سَفَرِهِ ﷺ الإسراء مُقْسَمًا به.

وبقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾[1] وعلى أَحَدٍ مِنَ الأقوال، المخاطب به النّبي ﷺ و"ما" للنفي أو للإستفهام الإنكاري والمعنى لا شيء يكذّبك أو فأيّ شيء يكذّبُك أي يُدلّ على كذبك في قولك بالجزاء بعد هذهِ الأقسام والدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على صِدْقك. وقيل "ما" بمعنى "مَنْ" والإستفهام للتعجّب يعني من ينسبك إلى الكذب بعد تلك الأقسام والشواهد على صدقك. فمعنى الآية تكون: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يا محمّد، على

---

١. التين، ٩٥: ٧

طريق الالتفات. فكأنّه تعالى قال: فمن يقدر على تكذيبك أيّها الرّسول لسبب إثباتك الجزاء وإخبارك عن البعث والثواب والعقاب وذكر هذا المعنى ابن جرير الطبري والإمام سليمان الجمل، فالحاصل بالخطاب ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي أردنا أن يطمئنَّ قلبك يا حبيبـــي، على ما بيّنا لك بعد هذه الأقسام. وفي قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ المجاز المرسل بإطلاق الحال وإرادة المحل، لأنّه أراد مواضعهما في قوله: ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ والمجاز العقلي، مِن إسناد ما للشيء إلى مكانه لأنّ الأمن إنما يكون لمن وُلِدَ وَبُعِثَ فيه وهو النّبيّ الحبيب المصطفى ﷺ.

٤٣. وكذلك أقسم الله تعالى بعصرِ النبيّ ﷺ على أحَدٍ مِنَ الأقوال لِفَضْلِه بِتَجْدِيْدِ النبوّة فيه، ذكره القرطبي وروي عن أبيّ بن كعب عن رسولِ الله ﷺ في تفسير: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾: أبوجَهْل، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أبوبكر رضي الله عنه، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: عمر

www.MinhajBooks.com

رضي الله عنه، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ عثمان رضي الله عنه، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ عليٌّ رضي الله عنه[1] وقال القرطبي بعده: وهكذا خطب ابن عباس رضي الله عنهما على المنبر موقوفًا عليه. وقال الخازن: قيل: أراد بالعصر زمن رسول الله ﷺ أقسم بزمانه كما أقسم بمكانه في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ نَبَّهَ بذلك على أنّ زمانه، أفضل الأزمان وأشرفها، كما مكانه أفضل الأماكن وأشرفها. وذكر الإمام سليمان الجمل: وقيل: العصر الزمن المختص به ﷺ وبأمّته أي: والعصر الّذي أنت فيه فأقسم بمكانه ﷺ في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾[2] وأقسم بعمره ﷺ ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٢﴾[3] وأقسم بعصره ﷺ هنا فكأنّه قال: وعصرك وبلدك وعمرك، فأقسم بهذه الظروف الثلاثة، فإذا وجب تعظيم الظرف فحال

www.MinhajBooks.com

---

١. العصر، ١٠٣: ١-٣

٢. البلد، ٩٠: ١

٣. الحجر، ١٥: ٧٢

المظروفٍ مِنْ باب أولى، هكذا قال الإمام الفخر الرازي أيضًا في تفسيره.

فاعْلَمُوا أنّ فضائل النّبيّ ﷺ ومناقبه وخصائصه لا تنتهي، وليس هذا الكتاب مصنّفًا يستوعب كثيرًا منها، وإنّما ذَكَرْنَا بعض الفضائل النَّبَوِيّة ﷺ الّتي ذُكِرَتْ في أَقْسَامِ القرآن عبارةً أو دَلالةً، وهذه نُبَذٌ يَسيرَةٌ مِن شَرَفِهِ وَكَمَالِهِ ﷺ فَلنَقْتَصِرْ على ذلك، ويكون هذا آخِرَ كلامنا في هذا الكتاب وَالْحَمْدُ للهِ المُكَرِّم، المُشَرِّفِ المستنصر لأنبيائه وأوليائه وخاصة لِصَفْوَةِ رُسُلِه وأُمَنَائه وَقُدْوَةِ أحِبّائه وأخلائه، الّذي جعل شَرِيْعَتَه ناسخةً لجميعِ شَرائِعِه، وجمع آدم ومَنْ دونه تحتَ لِوَائِه وأَقْسَمَ له في كتابه بآياته وآلآئه، وصلّى الله على سيّدنا محمدٍ وآله وصحبه واتباعه وأشياعه وبارَكَ وسَلَّمَ. فَنَسْأَلُ اللهَ تعالى الْوَفْرَة والازدياد مِنْ مَحَبّته وَقُرْبَتِهِ وامتثال سُنَّتِه ونُصْرَةِ دينه وخدمته والاقتداء به، وكثرة ذكره، وتعظيمه، وتوقيره والشوق إلى لقائه،

www.MinhajBooks.com

وأعطِنَا حُبَّ مَنْ أحبَّهُ والْبُغْضَ لجَمِيع أَعْدَائِه ﷺ. وارْزُقْنَا يا مولانا! مَعرِفَةَ كماله ﷺ، ومُشَاهَدةَ جماله. واجْعَلْ لَنَا يوم الآخِرَةِ يوم وِصَالِهِ ﷺ وَانْفَعْنَا بِشَفَاعَتِهِ وَكَرَمِهِ وَنَوَالِهِ ﷺ.

فَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ، وَمَا تَوْفِيْقِي إِلاَّ بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْبُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيْمِ.

www.MinhajBooks.com